كشف الأكاذيب والشبهات

عن دعوة

المصلح الإمام محمد بن عبد الوهاب

تأليف

د. صلاح الدين بن محمد بن عبد الرحمن آل الشيخ

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الجن: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة فاطر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الأحقاف: ٤-٦].

وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة يونس: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الزمر: ٣].

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، الحيِ القيومْ، الأحدِ الصمدْ، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كُفُوًا أحد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدْ، فليس له شريك ولا نظير، ولا نِدٌّ ولا معين، إلهٌ جلَّ عن الشبيه والنظير، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير، والصلاة والسلام على محمد، رسوله المصطفى ونبيه المجتبى، الذي ما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه، ولا شرًّا إلا حذرها منه، فتركها على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فقد أدى الأمانة بالتمام، ونصح الأمة بالكمال، فعليه وآله وصحبه أتم وأكمل صلاة وسلام.

ثم الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائهٍ قد هَدَوْه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله، بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن الضالين(١). وهم عن سنة المصطفى معرضون ولها مخالفون، فيَرْوُون

(١) خطبة الإمام أحمد في كتابه (الرد على الجهمية والزنادقة).

الضعيف والمكذوب، ويردون الصحيح والمقبول، ويعرضون النصوص على الأهواء والعقول، فيأخذون منها ما يشتهون، وينكرون ما لا يعقلون، فما صح منهم لله ولرسوله التسليم، ولا استوثقوا بحبل متين، فكبُر مقتًا عند الله قولهم عليه ما لا يعلمون.

هؤلاء العلماء الربانيون هم ورثة الأنبياء، امتدحهم الله تعالى في كتابه فقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٩]. ، فهم لا يستوون بغيرهم فعلمهم بالله تعالى يدعوهم لتعظيمه ومحبته وخوفه وطاعته، وعلمهم بأمره ونهيه يقودهم لامتثاله والتزامه، وعلمهم بوعده ووعيده يسوقهم شوقًا لجنته وهربًا من ناره، وأخبر أنهم هم أهل الخشية والتقوى على الحقيقة، قال تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ [سورة فاطر: ٢٨]، وهم أهل الرحمة والشفقة بالأمة يدعون إلى الخير والمعروف وينهون عن الشر والمنكر، ويصبرون لذلك على الأذى، قال تعالى: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ [سرة آل عمران : ١١٠].

أراد الله بهم خيرًا ففقههم الدين، فتعلموا وأخلصوا وعملوا وعلَّموا، فكانت منزلتهم عند الله عالية، وعند عباده المؤمنين شامخة، ومن رحمة الله بالأمة أن لا تزال طائفة منها على الحق منصورة لا يضرها من خذلها ولا من عادها حتى تقوم الساعة، وعلى رأسها علماؤها الراسخون يجدد الله بهم الدين ويحيي بهم ما أماتته البدعة والجهالة.

ودعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - الإصلاحية التي ظهرت في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، في زمن سادت فيه البدعة والضلالة، وغلب على الناس الجهل بالدين والتوحيد، فغلوا في الأولياء والصالحين، وبنوا على قبورهم القباب وصرفوا لهم مع الله العبادات، فيسألونهم ويدعون، ويخافونهم ويرجون، وينذرون لهم ويذبحون، فلابسوا الظلم العظيم والشرك برب العالمين، مع ما كانوا فيه من الاستهتار والتضييع للصلاة والأوامر ووقوعهم في المنهيات والفواحش.

فدعا الشيخ الناس إلى العودة إلى دين الله الذي كان عليه السلف الصالح، ودل عليه الكتاب والسنة والإجماع، فأثار الخصوم - قديمًا - حول الشيخ ودعوته شبهات، وأشاعوا عنها افتراءات، فما زال الشيخ وأنصاره يبلغون ويبيِّنون ويجاهدون حتى أظهر الله الحق وأزهق الباطل، إنه كان زهوقًا.

واليوم تعود هذه الأكاذيب والشبهات، متوليًا كِبرها اليهود والنصارى والرافضة، وجنودهم من المنافقين والعلمانيين، ذلك بعد أن أغاظهم وأخافهم هذه العودة الحميدة لدين الله الحق كما أنزله الله تعالى وجاء به رسوله ﷺ، فأرادوا حرف المسلمين عن منهج أهل السنة والجماعة، منهج الصحابة والتابعين، ومنهج أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، بالتلبيس والتشبيه عليهم أن هذا دين ابن تيمية وابن عبد الوهاب؛ ليعودوا بالمسلمين إلى الشرك والبدعة والضلالة.

فحررت هذه الصفحات - والنصح واجب للمسلمين - مستعينًا بالله تعالى، لكشف الأكاذيب والشبهات التي أُثيرت حول دعوة المصلح الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - منتهجًا فيها ذكر الفِريةِ والشبهة، ثم السبب

الذي دعى الخصوم لها، ثم الرد عليها بالمنقول والمعقول، ثم نقل أقوال الإمام وتلاميذه في ردهم عليها، وحقيقة أمرهم فيها.

وقد راعيت الاختصار دون الإخلال، وافتتحت بثلاث مقدمات هُن تمهيد للكتاب، وختمت بفصلين أحدهما للتعريف بالإمام محمد والآخر للتعريف بدعوته، والقارئ وفقه الله للحق وشرح صدره للعلم والإيمان، إن كان لا يعرف إلا القليل عن الشيخ وخصومه فليبدأ بفصلي التعريف بالشيخ ودعوته، سائلاً من الكريم الوهاب التوفيق للصواب والأجر والثواب.

* * *

المقدمة الأولى

الاستدلال منه صحيح مقبول، ومنه سقيم مردود، والصحيح ما وافق الكتاب والسنة والإجماع، والسقيم ما خالفها، والحق واحد، والمصيب واحد، وأهل العلم يستدلون بالدليل، يعتقدون صحة دلالته وإيصاله للحق، وفريق يتظاهرون بالعلم يستدلون بالدليل يعلمون بطلانه أو بطلان الاستدلال به في موضع الاستدلال، ولكن يريدون نصر مذهبهم وهواهم، والمخطئ يعذر حينًا وله أجر، ولا يعذر حين يتكلم بجهل أو هوى بل لا يكون - والحالة هذه - إلا آثمًا ضالاً مضلاً.

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] ، وروى الأربعة وصححه الحاكم عن بريدة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ، اثْنَانِ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ عَرفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ عَرفَ الْحَقَّ فَلَمْ يَقْضِ بِهِ، وَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقَّ فَقَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ»(١).

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب الأحكام، باب: الحاكم يجتهد فيصيب الحق ح(٢٣١٥). ورواه الترمذي، كتاب الأحكام، ح(١٣٢٢). ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الأحكام (٩٠/٤) وزاد فيه: قالوا: يا رسول الله فما ذنب هذا الذي يجهل؟ قال: ذنبه ألا يكون قاضيًا حتى يعلم، وقال فيه: حديث صحيح على شرط مسلم. قال الذهبي في الكبائر: صححه الحاكم والعهدة عليه.

وعلامة الحق أن أهله يستدلون له بالقرآن والسنة والإجماع، وعلامة الباطل أن أهله يستدلون له بالمتشابه من نصوص القرآن والسنة، وبالضعيف والموضوع من الأحاديث والآثار، وبالأقوال الشاذة، والآراء والقياسات الفاسدة، والمنامات والأحلام والخيالات، أو بتقديم الضعيف على الصحيح، والمحتمل على الصريح، والعقل على النقل، فيعارضون الآيات الواضحات البينات بآية حرفوها عن معناها، وحمّلوها معنىً بعيدا وأعرضوا عن معناها القريب، والله تعالى يقول:﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾، [سورة آل عمران : ٧] ويقابلون الأحاديث الصحاح الحسان بالضعيف والموضوع، وقد خاف ﷺ على أمته، وهو الحريص عليها، وبالمؤمنين رؤوف رحيم، فقال: «أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان»، ورُوي «يجادل بالقرآن».

وعدو الأمة إبليس اللعين، وهو الحريص على ضلالتها وشقائها، يفرح بزلة العالم، لما يتبعها من ضلال المقلدين المتعصبين.

وهؤلاء الخوارج والرافضة والجهمية وأشباههم من فرق البدعة والضلال قد اشتركوا في الاحتجاج والانتصار لمذهبهم بمثل ذلك من الأدلة، والله جل جلاله أنزل القرآن هداية للعالمين وتبيانًا وتفصيلاً لكل شيء وهدى وموعظة للمتقين، ولكن زيغ قلوبهم جعلهم من أهل المتشابه الذين يبتغون الفتنة ويبتغون حرفه عن معناه، فكانوا بذلك من الظالمين، الذين لا يزيدهم القرآن إلا بعداً وخسارا، قال تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ

﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الإسراء: ٨٢]، جزاءً وفاقًا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين.

* * *

المقدمة الثانية

لا يصح نسبة قول وفعل لمعين أو فرقة إلا بدليل صحيح بيِّنِ الدلالة من أقوالها وأفعالها وكتاباتها، سالم من المعارضة والاحتمال، أما نسبة الشيء لها من أقوال خصومها ومخالفيها أو بالظنون والكذب، فهذا افتراء مردود، لا يقبله منصف عاقل يطلب الحق ويسعى إليه، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة النمل: ٦٤] .

فلا بُدَّ من البرهان والبينة لنهوض الدعوى، وإلا فهي باطلة مردودة على صاحبها، ففي الصحيحين عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال: «لَوْ يُعْطَى النّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ»(١). وعند البيهقي بإسناد صحيح أنه ﷺ قال: «البَيِّنَةُ على المُدَّعِي وَاليَمِينُ على مَنْ أنْكَرَ»(٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، ح(١٧١١). سنن ابن ماجة، باب البينة على المدَّعي واليمين على المدَّعَى عليه، ح(٢٣٢١).

(٢) أخرجه البيهقي (٢٧٩/٨)، والدارقطني (١١١/٣)، ولمسلم: (البينة على المدعي) وليس فيه: (واليمين...) (انظر: صحيح مسلم رقم ١١٧١)، وقال النووي في أربعينه: حديث حسن، رواه البيهقي وغيره هكذا، وبعضه في الصحيحين، وأخرجه الدارقطني بلفظ: (البينة على المدعي واليمين على من أنكر إلا في القسامة) وفيه ضعف، وله عدة طرق متعددة لكنها ضعيفة، انظر: كشف الخفاء (٢٨٩/١).

فالروافض يزعمون أن أهل السنة يعادون أهل البيت ويبغضونهم ويعادونهم، وليس لهم على ما يقولون دليل وبرهان، وهذه كتب أهل السنة وأقوال أئمتها شاهدة على محبتهم لأهل بيت رسول الله ﷺ وتوقيرهم وإجلالهم، لكن الروافض شرطوا لمحبة أهل البيت شرطًا باطلاً مبتدعًا، وهو قولهم لا ولاء إلا ببراء، أي لا تصح دعوى تولي ومحبة أهل البيت إلا بالبراءة من الشيخين أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – ولَعَمْر الله هذا شرط لا يرتضيه علي والحسن والحسين – رضي الله عنهم – فقد صح عن علي – رضي الله عنه – فيما رواه البخاري وأبو داود وغيرهم أنه قال: «خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر»(١).

وروى البخاري عن محمد بن الحنفية قال: «قُلْتُ لأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ قَالَ: مَا أَنَا إِلا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ»(٢)، وكان يقول على منبر الكوفة: «لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري»(٣).

---

(١) مسند أحمد (١)، مسند علي بن أبي طالب، وانظر كنز العمال (١٣)، فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ح(٣٦١٠٣).

(٢) فتح الباري (٧)، كِتَاب فضائل الصحابة، باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ (لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً)، ح(٣٦٧١).

(٣) انظر كنز العمال (١٣)، فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ح(٣٦١٥٢) بلفظ مقارب.

وقال محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم: من فضلنا على أبي بكر وعمر فقد برئ من سنة جدنا ﷺ، ونحن غدًا براء ممن جعلنا طعمته(١).

وكذلك الجهمية ومن حذا حذوهم من المعطلة زعموا أن أهل السنة مشبهة مجسمة، وهذه كتب وأقوال أئمة السنة والجماعة شاهدة على نقيض قولهم وبهتانهم، فهم مجموعون على تكفير من مثَّل الله بخلقه، فليس كمثله شيء، ولكن هؤلاء المبتدعة شرطوا التعطيل للسلامة من التشبيه، فجعلوا من إثبات أهل السنة والجماعة لله تعالى ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات دون كيف وتمثيل تشبيهًا وتجسيمًا.

* * *

(١) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة لابن بطة العكبري.

المقدمة الثالثة

خصوم الإمام محمد، عالـمُ بدعة وجهالة قد ألف البدعة فظنها حقًّا ودينًّا، وعالـمٌ يريد بعلمه دنياً وجاها، وله من البدعة كسب وتعظيم، وعالـمٌ يحسد الناس ما أتاهم الله من فضله، والحسد داء وبلاء أخرج إبليس من الجنة، وهيج قابيل على هابيل فقتله فباء بإثمه والنار، وصدّ اليهود عن الحق وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فباءوا بغضب على غضب.

هؤلاء الخصوم جميعًا أضلوا العامة عن الحق بالأباطيل والشبهات، فأساء الظن كثير من الناس بدعوة الشيخ إما لجهله في نفسه، أو لجهله بحقيقة الدعوة بسبب الدعاية الباطلة المضادة لها، فصدهم هذا الظن عن الحق والهدى الذي جاء الشيخ ليحييه ويعيده بعدما ضل الكثير عَمَّا كان عليه السلف الصالح، وربما حملهم هذا الظن إلى المشاركة في ظلم الشيخ ودعوته وتنفير الناس عنها.

فلم يزل الشيخ في بيان ودعوة وجهاد حتى أظهره الله تعالى على أعدائه وخصومه، وبانت حقيقة هذه الدعوة السلفية السنية لكثير من المسلمين في جزيرة العرب، ورأوا في إمامها امتدادًا لعلماء أهل السنة والجماعة، وفي دعوته الدعوة إلى دعوة الرسول ﷺ بتحقيق التوحيد، والبراءة من الشرك والبدعة والتزام شرائع الدين.

وكان من حيل الخصوم لصد الناس عنه أن سموه ومن معه بالوهابيين ودعوته بالوهابية تلبيسا وتضليلا للناس، ومرادهم من هذه التسمية إخراجه عن جماعة

المسلمين والإيحاء لمن يجهل حقيقة دعوته من عموم المسلمين بانفراده بمذهب خاص به جديد.

والنسبة يراد بها العزو يقال نسبه لأبيه أي عزاه إليه، والنسبة الواقعة للفرق والمذاهب المنتسبة لدين الإسلام جاءت للتمييز والتفريق بين هذه الفرق، وذلك بعزو أهل كل فرقة إما لاعتقاد خاص بهم كالقدرية نسبة للقدر الذين ضلوا فيه، أو إلى فعل فعلوه لاعتقاد ومذهب خاص بهم كالروافض لرفضهم الشيخين والخوارج لخروجهم على جماعة المسلمين، أو إلى رجل وافقوه في اعتقاده أو طريقته الصوفية أو منهجه واختياراته الفقهية، وقد اخبر رسولنا ﷺ أن اليهود والنصارى افترقت وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي التي تبقى على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، فهذه الفرقة هي الأصل وغيرها تفرقت منها واختلفت عنها فضلت الطريق واتبعت الشياطين، هذه الفرقة هي الفرقة الناجية، وهي فرقة السنة والجماعة وأهلها متفقون في أصول الدين وكثير من فروعه، واختلافهم في الفروع من جنس اختلاف الصحابة في بعض المسائل الفرعية، فكان لهذا الاختلاف في تفاصيل المسائل الفرعية بين مشاهير علمائها أن ولّد تلاميذ وأتباع ومقلدين لمنهج واختيارات هؤلاء العلماء فنسبوا إليهم تارة والى منهجهم تارة فيقال أهل الحديث وأهل الرأي والظاهرية ويُقال حنفي ومالكي وشافعي وحنبلي، وهؤلاء جميعهم بعد هذه النسبة التفصيلية الخاصة بالمسائل الفقهية الفرعية ينتسبون للسنة والجماعة. فبذا يتضح أن النسبة والعزو في الدين إذا كانت لشخص معين تصح لمن كان له معتقد خاص به أو منهج واختيارات فقهية مشهورة، والإمام محمد بن عبد الوهاب ليس له معتقد أو

طريقة أو فقه خاص به، فمعتقده معتقد أهل السنة والجماعة، وفقهه فقهٌ حنبلي دون تعصب وتقليد بلا دليل، فهو سلفي سني حنبلي، فكانت النسبة إليه مغالطة مقصودة للإيحاء بمذهب خاص جديد، والتسمية لدعوته بالوهابية من نظير تسمية الروافض لأهل السنة بالنواصب وتسمية المعتزلة لهم بالمشبهة والمجسمة إذ المراد من هذه التسميات التشبيه والتلبيس والصد عن الحق، لذا رد الشيخ وتلاميذه هذه التسمية و لم يرتضوها.

هذه الحيلة القديمة لأعداء الشيخ أحياها اليوم أعداء الإسلام الحق - إسلام أهل السنة والجماعة - من اليهود والكفرة الغربيين وأتباعهم من الرافضة والمنافقين والعلمانيين، وبقية المبتدعة والمتصوفة فسموا هذه العودة الحميدة إلى الدين الحق في كثير من بلاد الإسلام، العودة إلى تطبيق الإسلام قولا وعملا في جميع شئون الحياة أصولية ووهابية، ومن هؤلاء المسلمين من لا يعرف الإمام محمد ودعوته، ولكنه ورد من نفس موردها واستقى من عين عينها فكان التوافق والتماثل، فسموا المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله تعالى بشعارات ورايات إسلامية لإخراج المعتدين والمغتصبين من بلاد الإسلام وهابيين، والذين يلتزمون أوامر الله ونواهيه ويعظمونها ويقدمونها، والذين يدعون إلى العلم والإسلام ونبذ الجهل والبدع والضلالات، والذين يدعون إلى الولاء والبراء من دون ظلم واعتداء، والذين يدعون إلى اقتصاد إسلامي سليم من ظلم الربا والمعاملات المحرمة، والذين يدعون إلى نجاة المرأة من الابتذال والظلم والاستغلال بامتثالها لأمر ربها في حجابها وسمتها، والذين يدعون إلى تبليغ الرسالة للناس أجمعين بنشر العلم وبناء المساجد وبذل الأموال قياما بالواجب ونصحا وشفقة للناس من الوقوع في النار والعذاب ،

كل هؤلاء متهمون بالتعصب والوهابية، لأنه إسلام لا يناسب أهواءهم ولا يوافق أطماعهم فالإسلام الذي يريدونه للمسلمين إسلام البدعة والتصوف والجهل، إسلام الفصل بين الدين والدنيا، والدين والحكم، والدين والقضاء، والدين والمال، والدين والمرأة، فبهذا الدين يأمنون ويرتفعون ويهيمنون على بلاد الإسلام والمسلمين. ولكن الله جل جلاله سيبطل مكرهم ويرد كيدهم ويدحر باطلهم، فالعاقبة للمتقين والنصر والعزة لله ورسوله والمؤمنين، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون.

* * *

الشبهة الأولى: التوسل والشفاعة والكرامات

قال خصوم الشيخ: جاء بدين جديد مبتدع، مخالفًا ما عليه علماء المسلمين، فأنكر التوسل والشفاعة، وما للأنبياء والأولياء والصالحين من المقامات والكرامات، وسمى توسلنا بهم عند الله وسؤالنا شفاعتهم شركًا، وما فعلناه إلا لما لذواتهم من المقام الرفيع والمنزلة العالية عند رب العالمين، لاسيما نبينا محمد ﷺ، فنحن المذنبون المقصرون نتوسل بهم عند الله ليقضي حوائجنا ويشفي مريضنا ويرزق فقيرنا، فنسألهم أن يسألوا لنا، ونسأل الله ونتوسل إليه بهم.

وقالوا: توسلنا بهم هو تبركٌ بهم وسؤالنا منهم مجاز، وقالوا: إن قلت شبهة من منع التوسل رؤيتهم بعض العوام يطلبون من الصالحين أحياءً وأمواتًا أشياء لا تطلب إلا من الله ويجدونهم يقولون للولي: افعل لي كذا وكذا. فهذه الألفاظ الصادرة منهم توهم التأثير لغير الله.

أجيب بأن الألفاظ الموهمة محمولة على المجاز العقلي والقرينة عليه صدوره من موحد ولذا إذا سئل العامي عن صحة معتقده بذلك يجيب بأن الله هو الفعال وحده لا شريك له، وإنما الطلب من هؤلاء الأكابر عند الله تعالى المقربين لديه على سبيل التوسط بحصول المقصود.

وقالوا: لا فرق بين التوسل بالحي أو الميت ولا فرق بين التوسل والاستغاثة والشفاعة واللجوء.

هذه شبهتهم، وسببها مخالفة الشيخ وإنكاره عليهم ما ألفوه وظنوه عقيدة صحيحة للمسلمين، وزينوه للناس ودعوا إليه من جواز سؤال الموتى والغائبين من

الأنبياء والأولياء والصالحين، قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ودعائهم، والاستعاذة والاستغاثة بهم، والرغبة إليهم، والخوف منهم خوف السر، وصرف النذر والذبح وغيرها من العبادات لهم، باسم التوسل والشفاعة والتبرك، فجعلوا إنكاره لذلك إنكارًا منه للتوسل والشفاعة وكرامات الأولياء، وعدوه دينًا جديدًا خالف فيه ما ألفوه واعتادوه.

هذه الشبهة هي لُب النزاع والخلاف بين الشيخ وخصومه، وهي ترجع إلى تعريف معنى العبودية الواجبة على العبد لله، والتأليه الذي يستحقه الله، ولا يجوز صرفه إلا لله، وإلا فالشيخ وخصومه متفقون على أن العبد مطلوب منه ابتغاء الوسيلة إلى الله، ولكن اختلفوا في تعريف هذه الوسيلة، ومتفقون أن الشفاعة حق وتكون للأنبياء والأولياء والصالحين ولكن اختلفوا في تعريف هذه الشفاعة وحدودها وضوابطها، ومتفقون أن للأنبياء معجزات ولهم وللأولياء وللصالحين كرامات ولكن اختلفوا فيما يستحقونه بسببها.

وسأطيل في هذه الشبهة؛ لأنها أصل الشبهات ومنها نتجت وترتبت أمور ونزاعات، فالشيخ - رحمه الله - يقول إن الدعاء والاستغاثة والتوكل، والرغبة والرهبة، والنذر والذبح والطواف، كلها عبادات، والعبادة لا تصرف إلا لله وحده، وصرفها لله تعالى ولغيره تأليه وعبادة لهذا الغير، وهذا هو الشرك الذي حرمه الله وسمَّاه ظلمًا عظيمًا وأخبر أنه يغفر ما سواه من الذنوب لمن يشاء ولا يغفره لمن مات عليه. قال تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ [سورة النساء: ٤٨].

فالأمر عظيم والخطب جليل، فالإله هو الذي تأله القلوب وتعظمه وتصرف له العبادات، فالصلاة عبادة فلا تصرف إلا لله، والمحبة والخوف والدعاء والسؤال ونحوها تكون لله تعالى وتكون لغيره، ولكن ما يكون لله جنس فيه عبودية وتأليه وتعظيم، وما يكون لغيره جنس له حدوده وضوابطه.

ونضرب الأمثال للتقريب، فالعبد إذا سأل أنساناً أو غيره حاضرًا أو غائبًا شيئًا لا يملكه إلا الله مثل الجنة كان مؤلهًا لهذا المسئول، عابدًا له، وإذا سأل غائبًا أو ميتًا شيئًا يملكه الله، ويملكه غيره على وجه التسبب فيه مثل: المال كان كذلك مؤلهًا لهذا المسئول عابدًا له، أما إذا سأل حاضرًا شيئاً يستطيعه فليست هذه عبادة ولا شرك، وكذلك الخوف يكون من الله ومن غيره، ولكن الخوف من الله شيء، والخوف من غيره شيء آخر له حدوده وضوابطه، فإذا خاف العبد من السيد والولي ذنبًا استتر به ولم يطلع عليه أحد إلا الله كان بذلك مؤلهًا ومعظمًا وعابدًا للسيد والولي.

وأغلب العرب قبل مبعث الرسول ﷺ كانت توحد الله في أفعاله فتؤمن أن الرازق والخالق والمحيي والمميت هو الله الذي في السماء، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة العنكبوت:٦١]

وغيرها من الآيات الدالات على إقرارهم بالربوبية، وتشرك في التأليه والعبادة فتدعو مع الله آلهة كثيرة منها الأنبياء والصالحين كالمسيح واللات، ومنها الأصنام والأشجار كهُبَل والعزى، وتقول هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وما نعبدهم إلا

ليقربونا إلى الله زُلفى، قال تعـالى: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة يونس: ١٨].

وقال تعالى حاكيًا قولهم: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الزمر:٣]. ونحوها من الآيات الدالة على شركهم في العبادة والتأليـه، فكانـت تصرف لهم العبادة مثل: الدعاء والذبح والخوف ونحوها، وتسميها باسمها عبادة، وتُسمى من صُرفت له هذه العبادات آلهة.

فلما جاءهم رسول الله ﷺ بالحق المبين، ودعاهم إلى توحيد الله في العبادة، كما وحدوه في الربوبية، أنكروا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحدًا إن هذا لشيءٌ عجاب، فما زال رسول الله ﷺ يبين ويعظ ويجاهد ويقاتل، حتى ظهر الحق وزهق الباطل، وانتشر التوحيد والإسلام بين الناس.

ولكن الشيطان كما أخبر ربنا - عز وجل - عنه عدو مبين، مَكْرُه عظيم وكَيْدُه شديد، وهو يريد لحزبه أن يكونوا معه في النار خالدين، ولا يزال يمكـر بالعبـد ويستدرجه في الذنوب والسيئات حتى يخرجه من الدين، إما بالكفر والإلحاد، أو الشرك والارتياب، فاحتال على عدوه الإنسان بتغيير المسميات مع بقاء الحقـائق والمعاني، فأوقعهم في الشرك باسم التوسل والشفاعة والتبرك.

* * *

وخصوم الشيخ لابدَّ من التفريق بينهم في نزاعهم معه في مسألة الاعتقاد في الأنبياء والأولياء والصالحين، فهم ليسوا سواء.

فمنهم من يقول أنهم يملكون الضُّر والنفع ولهم تصرف في الكون ويعلمون الغيب والسر، والله أعطاهم ذلك لمكانتهم عنده، فلا ضير بل واجب ومستحب أن نسألهم ونتوكل عليهم، ونرغب إليهم ونخاف منهم، ونحج لقبورهم ونطوف حولها، ونذبح وننذر لها وغير ذلك من العبادات.

وهذا قول ومعتقد الرافضة في الرسول ﷺ والأئمة الاثني عشر، بل وفي كبرائهم ومراجعهم، وهذه كتبهم المعتمدة شاهدة عليهم بذلك، وأفعالهم عند القبور ناطقة بحالهم، واليوم وهم يسعون لنشر باطلهم بين أهل السنة والجماعة، يخفون هذه المعتقدات الشركية وغيرها كتكفير الصحابة، تحت ما يسمونه التَّقِيَّة، والتي بها جعلوا الخليفة الرابع علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو الشجاع المغوار، الذي فلَّ سيفه جموع الكفار، يزوج ابنته من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وعمر عندهم كافر يقولون فيه أشنع القول وأبشعه، لعنهم الله بما قالوا وافتروا، ولكنهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة البقرة : ٩]. وإلا لو كانوا صادقين فليتبرأ مراجعهم وكبراؤهم من هذه الكتب المعتمدة المقدمة عندهم، المليئة بالكفر والباطل، واللعن والسب لخيار الأمة بعد نبيها على الملأ ويحرقوها، ويهدموا القباب ويمنعوا الشرك والكفر البواح عندها.

وكذلك هذا الاعتقاد في الصالحين، هو قول ومعتقد غُلاة الصوفية، الذين خرجوا عن الزيادة في الزهد والتعبد، إلى الكفر والإلحاد كقولهم بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وتحليل الحرام، فشيخهم قد حلَّ فيه الإله واتحد به، كما قال الضال المضل الحلاج: ليس في الجبة إلا الله، قاتلهم الله أنى يؤفكون، وما أحلم الله تعالى على الخلق ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴿٤٥﴾ ﴾[سورة فاطر: ٤٥].

فهذان الصنفان قد زادوا في شركهم عن شرك قريش، فأشركوا في الربوبية والألوهية، فقريش كما أخبر الله تعالى عنهم إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين فإذا نجاهم عادوا لشركهم، وهؤلاء إذا ركبوا في الفلك، واشتدت عليهم الأمور، توجهوا بدعائهم لأوليائهم، ويحلفون بالله كاذبين ولا يحلفون بالعباس إلا صادقين.

وآخرون من خصوم الشيخ، يعتقدون في الأنبياء والأولياء والصالحين أن دعاءهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم جائز ومطلوب، ما دام العبد يعلم أن النافع الضار هو الله تعالى، وإنما الأولياء واسطة لحصول المطلوب، وعلماؤهم وخاصتهم يسمون فعلهم هذا وسيلة لله وشفاعة عنده، وإلا فالعامة منهم لا يعرفون من فعلهم إلا ما تدل عليه حقيقة هذا الفعل من قدرة هذا الميت الغائب، المسئول من دون الله أو مع الله، على جلب النفع لهم ودفع الضرِّ عنهم، أو بالشفاعة المقبولة عند الله بالحق الذي يملكه والمقام الرفيع الذي بلغه.

وهؤلاء هم عامة مخالفي الشيخ من المنتسبين للسنة والجماعة، والحق أن هؤلاء قد ضلوا في هذه المسألة العظيمة من جهات متعددة، فهم لم يفرقوا بين توحيد

الربوبية وتوحيد الألوهية، فتوحيد الربوبية فعل الرب مثـل: الخلـق والـرزق، والإحياء، والإماتة، وإنزال المطر، وإنبات النبات، وتدبير الأمور فالله وحده الفاعل لذلك، وتوحيد الألوهية فعل العبد، مثل: الدعاء والرجاء، والخوف، والتوكـل، والإنابة، والرغبة، والرهبة، والنذر، والاستغاثة، وغير ذلك من أنـواع العبـادة، فظنوا أن اعتقاد العبد أن الله تعالى هو الخالق الرازق النافع الضار كافٍ في تحقيق الإسلام والإيمان والنجاة من الشرك والضلال، والله تعالى أخبر في كتابه العزيز أن مشركي قريش مقرّين بذلك وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ [سورة العنكبوت: ٦١] وقوله تعـالى: قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ [سورة يونس: ٣١]، وما نفعهم هـذا التوحيد مع شركهم في الألوهية بسؤالهم الله وسؤالهم لغيره، وتوكلهم عليه وعلى غيره، ورجائهم ورغبتهم، ورهبتهم، واستغاثتهم، ونذرهم لله تعالى ولغيره مـن المخلوقين، وإن سموا هذا الشرك شفاعة وتوسلاً، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الزمر: ٣].

فالمشركون كانوا يسألون الأصنام والملائكة والأنبياء والصالحين ويطلبون منـهم، فهذه عبادتهم لهم، وما فعلوا ذلك إلا تقربًا إلى الله تعالى بهم فهم الواسطة الـتي

نالت من التعظيم والإجلال ما بلغ حد التأليه، بصرف ما هو محض حق الله تعالى من العبادات إليها، و لم ينفعهم قولهم إنما نطلب منهم الشفاعة، والله تعالى يرد في كتابه العزيز على من صرف عبوديته لله ولغير الله وسمى فعله شفاعة وتوجهًا بهم إلى الله، في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة يونس: ١٨].

وأخطؤوا أيضًا في حقيقة ما في قلوب العامة تجاه الأولياء والصالحين، فالواقع أنهم يغلون فيهم الغلو المذموم، والذي آل بهم إلى الشرك، فيعظمونهم ويرجونهم، ويخافونهم، ويحبونهم، لأن حاجتهم لا تُقضى إلا من جهتهم وبواسطتهم، فلا سبيل إلى الله تعالى إلاَّ عن طريقهم، وربما ضن بعضهم أنهم هم الذين يغفرون وينفعون ويضرون، وحالهم عند هذه الأضرحة والقباب شاهدٌ لذلك.

وأخطؤوا في قولهم أن قول السائل: يا محمد أو يا علي ارزقني واغفر لي مجاز، وأن حقيقة أمره أنه يقول يا الله أتوسل إليك برسولك أو بالولي، فهذه سفسطة تخالف اللغة وتخالف الحقيقة، فالمنادى هو المدعو المطلوب منه تحقيق الطلب، المظنون فيه القدرة على تحقيق المطلوب، ومن يملك ويستطيع أن يرزق ويغفر ويعفو سيكون له في القلب التأليه، ونوع التعظيم والمحبة، والرغبة، والخوف التي لا تكون إلا لله وحده.

وهذا هو واقع وحقيقة ما في قلوبهم، ثم لو سُلم لهم هذا الإضمار والقصد، فالحكم على هذا الفعل والفاعل إنما يكون على الظاهر منه، فيقال: هذا شرك وفاعله مشرك ويعامل معاملة المشرك، وباطنه ومصيره إلى الله تعالى، كما قاله الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله تعالى - حين ناظره أحد المنتسبين إلى العلم،

فقال: هؤلاء ظهروا بمظهر الشرك، فقال الشيخ: فنظهر لهم من الحكم عليهم بالشرك حسب ما أظهروه من الشرك.

وبعد ما تقدم، فأستعين الله لتفصيل القول في هذه المسائل الثلاث: التوسل، والشفاعة، والكرامات، مبينًا وشارحًا لقول الشيخ وأقوال خصومه فيها، ثم أنقل من أقوال الشيخ وتلاميذه ما يعتقدونه في هذه المسائل الثلاث.

* * *

مسألة التوسل

الشيخ – رحمه الله تعالى – يقول: التوسل منه ما هو مشروع مطلوب من العبد تحصيله، ومنه ما هو بدعة مذمومة، ومنه ما هو حرام وشرك بالله، فالتوسل المشروع أن تتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وبصفاته العُلا، فتسأل الله تعالى الرحمة متوسلاً إليه باسمه الرحيم وبرحمته التي وسعت ما في السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠]. وصح عنه ﷺ أنه قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ الله لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»(١). وكذلك تتوسل بصالح الأعمال، بالإيمان، والصلاة، والبر، والصدقة، وبمحبة الرسول ﷺ، ومحبة الأولياء والصالحين، فتقول في سؤالك وتوسلك، اللهم إني أتوسل إليك بمحبتي لرسولك وأوليائك أن تعفو عني وترزقني، ونحو ذلك، فهذه المحبة عمل صالح منك، تتوسل إلى الله به، كما فعل الثلاثة حين انطبقت عليهم الصخرة فحُبسوا في الغار، فقالوا: إنه لن ينجيكم إلاّ أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فتوسلوا إلى الله بصالح ما عملوا حتى انفرجت عنهم الصخرة.

والتوسل البدعي أن تسأل الله وتتوسل إليه بجاه النبي ﷺ، أو بجاه الولي الفلاني، فهذا توسل بدعي؛ لأن العبادة لا تؤخذ إلا من القرآن والسنة والإجماع، وقد قال

(١) رواه الترمذي، أبواب الدعوات عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، باب ما جاءَ في جامعِ الدَّعواتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ح(٣٥٤٢).

تعــــــــالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة : ٣]

وفي الصحيحين عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وفي رواية لمسلم «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »(٢).

وكان في خطبته ﷺ يقول معلمًا ومحذرًا: « إن شَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ »(٣)، فكل تفيد العموم، فالبدع التي هـــي العبـــادات المخترعة التي لم يشرعها الله ورسوله مردودة كلها.

وتقسيم البدع إلى حسنة وسيئة، والاستدلال له بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعمت البدعة هذه، حين جمع الناس في صلاة التراويح على إمام، فمردود من وجوه:

الأولى: مخالفة هذا التقسيم لنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح بأن كل البدع في الدين ضلالة.

والثانية: أن صلاة التراويح فعلها رسول الله ﷺ، ثم تركها شفقة بأمته أن تكتب عليهم، ففي صحيح البخاري عن عائشة – رضي الله عنها – «فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اغْتَسَلَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَصَلَّوْا مَعَهُ بِصَـــلاتِهِ ثُـــمَّ أَصْـــبَحَ

---

(١) فتح الباري، كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ح(٢٥٥٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، ح(١٧١٨).

(٣) رواه ابن ماجة، كتاب الإيمان، باب اجتناب البدع والجدل، ح(٤٦).

فَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ فَاجْتَمَعَ اللَّيْلَةَ الثَّالِثَةَ نَاسٌ كَثِيرٌ حَتَّى كَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ، قَالَتْ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّى فَصَلَّوْا مَعَهُ فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ اجْتَمَعَ النَّاسُ حَتَّى كَادَ المَسْجِدُ يَعْجِزُ عَنْ أَهْلِهِ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَخرُجُ قَالَتْ: حَتَّى سَمِعْتُ نَاسًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الصَّلاةَ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا صَلَّى صَلاةَ الْفَجْرِ سَلَّمَ ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ شَأْنُكُمْ اللَّيْلَةَ وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجَزُوا عَنْهَا »(١)، فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك، فكان من فقه الملهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن سنها بعد وفاة الرسول ﷺ؛ لأن السبب الذي منع رسول الله عنها قد انتفى.

والثالثة: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ليس كغيره من المسلمين فله وللخلفاء الأربعة خصوصية، وله ولأبي بكر زيادة خصوصية، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبو داود، والترمذي، وقال: حسن صحيح، ورواه غيرهم عن العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعَليكم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد، ح(٨٨٢).

(٢) رواه الترمذي، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، ح(٢٨١٦). وأخرجه أحمد في مسنده، ج(٤/ص١٢). ورواه أبو داود، وابن ماجة، وصححه الحاكم، وقال: على شرط الشيخين. والنواجذ: الأضراس الأخيرة، تفيد شدة التمسك بها.

وعن حذيفة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»(١) رواه أحمد والترمذي، وابن ماجة والحاكم، فالرسول ﷺ خصهم فاختصوا بما خصهم به.

والرابعة: أن المراد بالبدعة هنا البدعة اللغوية، فقوله: نعمت البدعة، نعمت الأمر الجديد، فالصلاة بهذه الصورة في رمضان أمر جديد، ولكن لكون الرسول ﷺ فعلها ليالٍ من رمضان ثم تركها خشية أن تفرض لم تكن بدعة شرعية.

واستدلوا لجواز البدعة بقوله ﷺ من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها فقالوا: كل عبادة لله جديدة محدثة هي سنة حسنة، وقال الراسخون في العلم: السنة في الحديث العمل الصالح من صدقة وأمر بمعروف ونهي عن منكر وإصلاح بين الناس ونحوه، يفعله المرء ويتابعه عليه الناس، وهذا الفهم للحديث فهمٌ يلتقي ويتوافق مع قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة» ويتفق مع قصة الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ مُوسَى بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ وَأَبِي الضُّحَى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هِلَالٍ الْعَبْسِيِّ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ جَاءَ نَاسٌ مِنْ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمْ الصُّوفُ فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ قَالَ ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ

---

(١) رواه الترمذي، كتاب المناقب ح(٣٦٦٢، ٣٨٠٥)، وابن ماجه ح(٩٧)، ورواه الطبراني في الأوسط من طريق آخر (٥٨٤٠، ٧١٧٧).

جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

فالصحابي رضي الله عنه تصدق وتابعه الناس بالصدقة فكانت سنة حسنة سنها للناس.

فهذا الدعاء والتوسل فيه بهذه الصيغة، اللهم إني أسألك بجاه فلان ونحوه، لم يثبت أن الرسول ﷺ فعله، أو أمر به، ولم يفعل هذا التوسل الصحابة، وهذا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الذي أمرنا رسول الله ﷺ بالاقتداء به، عندما أصاب الناس القحط عام الرمادة، قال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فلو كان الاستشفاع والتوسل بالأموات والغائبين حقًّا لم يعدل عمر للمفضول عن الفاضل.

ثم إن المتأمل ليرى عدم التلازم والتناسب في هذا الدعاء، فجاه النبي والولي شيء معلوم قد أنعم الله به على من اصطفى من عباده، والداعي السائل من الله حاجته يتوسل بشيء أجنبي لا علاقة له به، نعم لو توسل بمحبته وطاعته للنبي لكان مناسبًا منسجمًا مع السؤال إذ هو عمل صالح منه يتوسل إلى الله به.

فإن قال الخصم: الرسول ﷺ حيٌّ في قبره حياة أكمل من حياة الشهداء، وهو يسمع ويرد السلام على من سلم عليه، فلا ضير من سؤاله ودعائه.

فالجواب: أن هذا قول حق مُزج بباطل، فالرسول ﷺ حيٌّ في قبره حياة برزخية تخالف حال الحياة الدنيا، وحياته أكمل من حياة الشهداء وغيرهم إذ هو سيد ولد

آدم أجمعين، وكذلك غيره من الأموات لهم حياة في قبورهم ينعم المؤمن ويعذب الكافر، ولكنها حياة تفارق في صفتها وأحكامها الحياة في الدنيا، فهو ﷺ قد مات ولحق بالرفيق الأعلى كما اختاره هو لنفسه لـمَّا جاءه ملك الموت يستأذنه في قبض روحه، وهذا أمر لا يخاصم فيه من عنده علم وعقل، كيف وقد أجمع الصحابة على موته، ودل عليه القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [سورة الزمر:٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٤]، وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الشيخ أحمد بن إبراهيم ابن عيسى في شرحه لنونية ابن القيم: «فاحتج الناظم عليهم بأن الرسول ﷺ لو كان حيًّا في الضريح كحياته قبل الموت، فأي حاجة إلى دفنه؟ بل يكون فوق الأرض، وهذه سنة الله في الأحياء، وكيف يكون حيًّا تحت الأرض كحياته على وجهها، ثم لا يُفتي أصحابه بالشرائع، ولا يريح أمته من الآراء والاختلافات العظيمة التي حدثت بعده؟»(١)، وموته لا يعارض أن له حياة برزخية هي أعظم من حياة الشهداء، وأن المُسلِّمَ عليه إذا سلم رُدت روحه الطاهرة إليه ليرد السلام، كما ثبت ذلك في الصحيح.

هذا وقد فرق بعض أهل العلم بين الرسول ﷺ وغيره، فأجازوا التوسل بالنبي فقط، فيسأل العبدُ اللهَ تعالى متوسلاً إليه بجاه نبيه، مستدلين لذلك بحديث الأعمى

(١) شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى ج(٢/ ١٥٥).

الذي سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى، والأكثر والأصح أن هذا لا يجوز لا بالنبي ولا بغيره من باب أولى؛ لعدم وروده من الشارع بطريق صحيح سالم من الاعتراضات، ولعدم فعل الصحابة له؛ ولأنه ذريعة للشرك، وسدّ الذرائع إليه واجب.

والتوسل الشركي هو صرف العبادة لغير الله تعالى معتقدًا أن ذلك توسلاً وسبيلاً إلى الله تعالى، فيكون الدعاء والسؤال، والاستغاثة، والرجاء، والتوكل وغيرها من العبادات متوجهة للمُتَوسل به من نبي وولي. وهذا الفعل ليس توسلاً لغة وحقيقة، فمن قال: يا ولي الله فلان عافني، فهو سائل للولي، طالب منه ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فيكون بذلك مشركًا في عبادته. والآيات دالة مقررة لذلك، فالله تعالى يقول آمرًا بصرف الدعاء له وحده: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الجن: ١٨] ؛ لأن الدعاء عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، قال ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»(١).

وقال تعالى مخاطباً المشركين إن المدعو من دون الله هو عبد لله مثلكم، لا يستجيب ولا ينفع: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف : ١٩٤] ، وهذا تهكم من الله تعالى بهؤلاء المشركين الذين يصرفون الدعاء إلى غير الله، وقال تعالى مبينًا أنه ليس أضل ممن يدعو من لا يستجيب له أبدًا، ثم هو غافل

---

(١) رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب الدعاء، ح(١٤٧٩). ورواه الترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، ح(٣٤٣٢)، حديث حسن صحيح.

لا يشعر بهذا الدعاء، وهو يوم القيامة عدو لمن دعاه متبرٍ منه، كافر بعبادته له: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝ ﴾ [سورة الأحقاف: ٥-٦] ، تمامًا كما يتبرأ المسيح عليه السلام ممن غلا في تعظيمه ومحبته له، فألّهه وعبده مع الله ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة المائدة: ١١٦-١١٧] .

وقال تعالى آمرًا عباده أن يدعوه فهو قريب مجيب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ۝ ﴾ [سورة البقرة :١٨٦]، والآيات المقررة لذلك كثيرة.

أما خصوم الشيخ، وهم في الحقيقة خصوم لأهل السنة والجماعة، فذهبوا يستدلون لهذا الشرك بعد أن غيروا اسمه وسموه وسيلة بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [سورة المائدة :٥٣]، قالوا: الله أمرنا أن نبتغي إليه الوسيلة، والوسيلة هي النبي والولي والصالح، فهم القربة التي نتقرب ونتوسل بها، وهذا مع معارضته للآيات البينات المحكمات الدالة على نفي دعاء غير الله، ونفي الواسطة بين الله وعباده، وموافقته لما قاله المشركون الأولون كما حكاه الله عنهم: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [سورة الزمر: ٣]، فهو تفسير للآية مخالف لما قاله أئمة التفسير، قال ابن جرير – رحمه الله تعالى – في تفسيرها: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه، فالوسيلة هي القربة، والقربة هذه هي الطاعة والتقوى والعمل الصالح والتحبب إلى الله، ونقله عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ومجاهد وغيرهم، وهو موافق لقول المفسرين المعتبرين جميعًا. والعجب أنهم يستدلون بهذه الآية، وهي من عمدة أدلتهم، ااااويضعونها في غير موضعها، والله تعالى يقول في الآية الأخرى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٥٦-٥٧]. يقول تعالى مخاطبًا المشركين هؤلاء الذين تدعونهم وتسألونهم من الملائكة، والأنبياء كعيسى وعزير، وغيرهم من المخلوقات كالشمس والقمر، لا يملكون ولا يقدرون أن يكشفوا ما بكم من الضر ولا تحويله عنكم لغيركم، بل هم يتقربون إلى الله بالطاعات والأعمال الصالحات، وبأعظمها وأقربها وأحبها إليه، لينالوا بها درجة عالية رفيعة قريبة من الله. وفي مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري – رضي

الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «الْوَسِيلَةُ دَرَجَةٌ عِنْدَ الله لَيْسَ فَوْقَهَا دَرَجَةٌ فَسَلُوا الله لِيَّ الْوَسِيلَةَ »(١) .

فكلٌّ يطلب القرب والدرجة العالية الرفيعة، ورسولنا ﷺ هو أعظم الخلق عبوديةً ومحبةً، وتعظيمًا، وطاعةً، ومعرفةً بربه، فكانت هذه المترلة العالية له، وغيره له قُربٌ ومترلةٌ تناسبه، فالطاعات والقرب تتفاوت درجاتها، وهم بتقربهم إلى الله بالطاعات، يرجون قرب المترلة والفوز برحمته، والنجاة من عذابه، والذي يجب أن يخاف ويحذر، فجمعوا مع طاعتهم رجاء وخوفًا، فكيف يُدعى من دون أو مع الله من هو في نفسه مفتقر متقرب لله يرجو الجنة ويخشى النار؟!

وكذلك يعتمدون في احتجاجهم على حديث الأعمى – رضي الله عنه – الذي سأل رسول الله ﷺ أن يدعو له الله أن يرد بصره – والحديث رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وصححه جمع من أهل الحديث – فقال ﷺ: «إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك، فقال: بل ادعه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول: اللهم إني أسألك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيجلي عني بصري، اللهم فشفعه في»(٢).

وهذا الحديث فهمه أهل العلم فهمًا لا يتعارض مع النصوص الأخرى الدالة على منع دعاء غير الله أو اتخاذ الوسائط والشفعاء، فقالوا هذا الأعمى سأل الرسول ﷺ أن يدعو له الله أن يرد بصره، فدعا له ثم علمه أن يسأل الله ويتوجه إليه في

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١١٨٠٠)، المجلد الثالث/ مسند أبي سعيد الخدري.

(١) رواه أحمد في مسنده، المجلد الرابع (١٣٨/٤).

حاجته بدعاء النبي الذي تحقق ووقع له سائلاً الله أن يقبل شفاعة رسول الله ﷺ فيه.

وانظر إلى كلام الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – في كتابه «الرد على الزنادقة والجهمية» إذ يقول: «وأما قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة القيامة: ٢٢-٢٣] وقال في آية أخرى قال تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ [سورة الأنعام :١٠٣]. فقالوا كيف يكون هذا؟ يخبر أنهم ينظرون إلى ربهم، وقال في آية أخرى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [سورة الأنعام :١٠٣]. فشكوا في القرآن، وزعموا أنه ينقض بعضه بعضًا. أما قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ يعني الحسن والبياض، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ، يعني تعاين ربها في الجنة، وأما قوله: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ ، عني في الدنيا دون الآخرة»(١). وذكر الشيخ الشنقيطي – رحمه الله – في أضوائه وجهًا آخر لتفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ ، فقال: الوجه الثالث وهو الحق أن المنفي في هذه الآية الإدراك المشعر بالإحاطة بالكنه، أما مطلق الرؤية فلا تدل الآية على نفيه. وهكذا الراسخون في العلم المطمئنون الموقنون يجمعون ويوجهون الآيات والأحاديث التي ظاهرها التعارض، وغيرهم يهلكون فيضربون بعضه ببعض، فيَضلون ويُضِلون.

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله ص ٧٦.

والحديث يحتمل احتمالاً بعيدًا جواز التوسل مطلقًا إلى الله بنبيه، فيقول: اللهم إني أتوسل إليك بنبيك أن تغفر لي، ونحوه من الدعاء، لذا كان في المسألة نزاع ضعيف بين العلماء، وهذا عده الشيخ وشيخ الإسلام، وكثير من المتقدمين بدعة لعدم فعل الصحابة له؛ ولأن الحديث خاص بمن دعا وشفع له الرسول ﷺ، مثل هذا الأعمى. ويجدر التنبه إلى أن نزاع الشيخ مع خصومه ليس في هذه المسألة؛ لأنها ليست بشرك، ولا انبنى عليها التكفير والقتال، وهذا لا ينفي أنها بدعة، ووسيلة إلى الشرك فكان التحذير منها وإنكارها واجبًا.

أما بقية أدلة الخصوم لمسألة التوسل، فاحتجاجهم بها بينٌ ضعفه وسقوطه، ولولا خوف الخروج عن ما إلتزمته من الاختصار لبسطت القول فيها، هذا وقد تناول هذه الأدلة بالتمحيص والرد أعلام هذه الدعوة كالشيخ عبد الرحمن بن حسن وابنه الشيخ عبد اللطيف والشيخ عبد الله أبابطين، والشيخ أحمد بن عيسى وغيرهم في ردودهم على خصوم الدعوة.

* * *

وهذه مجموعة من أقوال الإمام محمد وتلاميذه تبين حقيقة قولهم واعتقادهم في التوسل:

قال الإمام محمد: «فالمسائل التي شنع بها، منها ما هو من البهتان الظاهر وهي قوله: إني مبطل لكتب المذاهب، وقوله: إني أقول أنَّ الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، وقوله: إني أدعي الاجتهاد، وقوله: إني أكفر من توسل بالصالحين ..

فهذه اثنتا عشر مسألة جوابي فيها أن أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، ولكن قبله من بهت النبي ﷺ أنه يسب عيسى بن مريم ويسب الصالحين تشابهت قلوبهم»(١).

وقال الشيخ عبد الله بن الإمام محمد: «وأما التوسل وهو أن يقول القائل: اللهم إني أتوسل إليك بجاه نبيك محمد ﷺ، أو بحق نبيك، أو بجاه عبادك الصالحين، أو بحق عبدك فلان، فهذا من أقسام البدع المذمومة، ولم يرد بذلك نص»(٢).

وقال الشيخ حمد بن ناصر بن معمر: «نحن نعلم بالضرورة أن النبي ﷺ لم يشرع لأمته أن تدعوا أحدًا من الأموات لا الأنبياء، ولا الصالحين ولا غيرهم. لا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها بل نعلم أنه نهى عن هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله. يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا ۝٥٧﴾ [سورة الإسراء :٥٦-٥٧] ، فهذه الآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعوًّا وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة، ويرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل من دعا ميتًا أو

(١) مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب ج(٦/ ٦٤).

(٢) الدُّرر السنية في الأجوبة النجدية ج(١/ ١٥٤).

غائبًا من الأنبياء، والصالحين فقد تناولته هذه الآية، وقد دعا مـــن لا يغيثـــه، ولا يملك كشف الضر عنه، ولا تحويله»(١).

وقرر علماء الحجاز ونجد(٢) أن دعاء غير الله من الأموات، والغـــائبين، وحبـــه كحب الله وخوفه، ورجاءه، ونحو ذلك شرك أكبر وسواء دعاء عبادة، أو دعـــاء استعانة في شدة أو رخاء فإن الدعاء مخ العبادة وسواء دعاه لجلب نفع أو دفـــع ضر.

* * *

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(١٠/ ٢٨٣).

(٢) انظر بيان المفيد فيما اتفق عليه علماء مكة ونجد من عقائد التوحيد.

مسألة الشفاعة

كتب ورسائل الشيخ وتلاميذه شاهدة على موافقتهم لعقيدة أهل السنة والجماعة في إثبات الشفاعة على الوجه الذي دلت عليه النصوص، وهم وسط فيها بين من أنكرها من الوعيدية كالمعتزلة والخوارج، وبين من غلا فيها وحرفها عن معناها حتى صارت عنده حق للشافع يملكه، وبه يدخل من يشاء الجنة، ويخرج من يشاء من النار كالرافضة والصوفية.

والشيخ – رحمه الله – يقول تبعًا لعقيدة أهل السنة والجماعة: أن الأنبياء ثم الأولياء والصالحين، لهم منازلهم ودرجاتهم العالية عند الله تعالى، وللرسل معجزات، ولهم وللصالحون كرامات وشفاعات، فأثبت للرسل والصالحين، والأطفال شفاعتهم كل بدرجته ومقامه، وأعلاهم مقامًا وأشرفهم مكانًا نبينا محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين، وخليل رب العالمين، له الشفاعة الخاصة العظمى يوم القيامة، كما جاء في الصحيحين(١)، حين يشتد الكرب بالناس يوم القيامة فيأتون أباهم آدم عليه السلام يسألونه أن يشفع لهم عند الله أن يقضي فيهم فيتذكر زلته فيعتذر لهم ويقول: نفسي نفسي، ثم يذهبون إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، كلهم يعتذرون، حتى يأتوا محمدًا ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقوم – بأبي هو

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة مترلة فيها، ح(٣٢٢).

وأمي – فيأتي تحت العرش ويقع لربه ساجدًا فيفتح الله عليه ويلهمه من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد من قبله، ثم يُقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فيقول وهو الرحيم بأمته: يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، فيقول الرب تبارك وتعالى أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب. ويشفع هو والأنبياء والصالحون لأناس استحقوا العقاب والعذاب فيدخلون الجنة، وفي أُناس فيخرجون من النار ويدخلون الجنة، وشفاعته ﷺ، وشفاعة غيره من الشافعين لا تكون إلا لأهل لا إله إلا الله، ممن ماتوا على التوحيد ولكن فرطوا في تضييع الأوامر وارتكاب الكبائر.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أنه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «قَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يَسْأَلُني عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا الله خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»(١).

قال ابن حجر – رحمه الله – في الفتح قوله: من قال لا إله إلا الله احتراز من المشرك، وخالصًا احتراز من المنافق، وفي الصحيح يقول ﷺ لعمه أبي طالب، وقد حضرته الوفاة: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، وكان عنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب، فأعاد عليه النبي ﷺ، وأعاد، فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب، فقال ﷺ:

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: الحرص على الحديث، ح(٩٩).

لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»(١) فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة التوبة:١١٣]، وأنزل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [سورة القصص: ٥٦]، وما منع أبا طالب من قول لا إله إلا الله مع علمه بصدق الرسول إلا تعظيمه لعبد المطلب والأجداد، يقول في شعره:

فوالله لولا أن أجيء بسبةٍ	تجرُ على أشياخنا في المحافلِ
لكُنَّا اتبعناهُ على كلِ حالةٍ	من الدهرِ جدا غيرَ قولِ التهازلِ
لقدْ علِموا أنَّ ابننَا لا مُكذَّبٌ	لدينا و لا يُعنى بقولِ الأباطلِ

وله ﷺ شفاعة خاصة يُخفف بها العذاب عن عمه أبي طالب، كما ثبت في صحيح البخاري عن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - قال للنبي ﷺ: «مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ قَالَ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ»(٢)، وعند مسلم من حديث

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ح(١٢٩٤).

(١) رواه البخاري، باب: كنية المشرك، ح(٥٨٥٥). وأخرجه مسلم في الإيمان، باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، ح(٢٠٩).

ابن عباس – رضـي الله عنهما –: «إن أَهْـوَنَ أهـل النار عذابًا أبـو طالب لَهُ نَعْلانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»(١).

فالشفاعة حق والشيخ محمد أثبتها على الوجه الذي أثبتها أهل السنة والجماعة، لا على الوجه الذي ادعاه الخصوم، فالخلاف ليس في إثبات الشـفاعة، ولكـن في شروط هذه الشفاعة وحدودها وممن تطلب، فعند الإمام محمد، وهو متبع وتـابع لقول السلف والأئمة الأربعة وغيرهم من علماء المسلمين، الشفاعة لا تكـون إلا لأهل التوحيد من المحسنين والمسيئين، بعد أن يأذن الله للشافع أن يشفع، ويرضى عن المشفوع له، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة :٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[سورة الأنبياء : ٢٨]، ثم الشفاعة، التي هي الدعاء، تُسأل من الأنبيـاء حـال حيـاتهم، وفي حضورهم وسماعهم من الطالب لها، مثل ما يُطلب منهم الـدعاء والاسـتغفار والاستسقاء حال حياتهم وحضورهم، وكذلك بعد مبعثهم يوم القيامة، أما حال موتهم وغيبتهم فلا تُسأل منهم، ومن أنكر موت النبي ﷺ فقد خـالف القـرآن والسنة، والصحابة أجمعوا على موته ولحوقه بالرفيق الأعلى، فلم يسألوه ويستفتوه في المسائل بعد موته، كما لم يستسقوا به حال جدبهم واضطرارهم، وما اسـتدل به الخصوم من الاستسقاء به بعد موته أثر ساقط لا تقوم به حجة، بل الصـحيح الثابت أن عمر بن الخطاب سأل العباس عم رسول الله ﷺ أن يستسقي للمسلمين عام الرمادة، وما كان ليعدل للمفضول عن الفاضل لو كان ذلـك جـائزًا، و لم

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: أهون أهل النار عذابًا، ح(٢١٢).

يسألوه الدعاء لهم بالنصر على الأعداء مع ما أصابهم في حروبهم مع المرتدين وفارس والروم، لم يفعلوا ذلك وهم أشد الناس تعظيمًا وإجلالاً وطاعة له؛ لأنهم عرفوا أن سؤال الميت ودعاءه هو تأليه له وعبادة، ولم يفعلوا ذلك امتثالاً لما ثبت من أمره ﷺ لأمته بقوله: «لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»، وقوله: «لا تتخذوه عيدًا»(١)، وقوله: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٢)، يحذر أمته ما فعلوا، فكانوا يأتون قبره فيسلمون عليه وعلى صاحبيه، ولا يسألونه شيئًا بل السؤال والدعاء كله لله تعالى، وهم يرجون شفاعته ويحرصون عليها ويطلبونها بالوجه الذي دلهم عليه رسول الله ﷺ، بطاعته وامتثال أمره ونهيه، وبسؤال الله تعالى بعد سماع ومتابعة الأذان، أن يؤتيه الله الوسيلة والفضيلة ويبعثه المقام المحمود الذي وعده، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣)

أما خصوم الشيخ فقد ضلوا في ذلك، وخالفوا ما عليه السلف الصالح، وظنوا أن إثبات الشفاعة للأنبياء والصالحين يجيز سؤالها منهم بعد موتهم، فيقولون يا رسول الله، يا علي، يا ولي، اشفع لي واستغفر لي، ولم يهتدوا إلى التفريق بين إثبات الشفاعة، وسؤال ودعاء الأنبياء والصالحين، وقد استشهدوا لذلك بالضعيف

---

(١) رواه أحمد في مسنده، المجلد الثاني/ مسند أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، ح(١٢٦٥).

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: الدعاء عند النداء، ح (٥٨٩).

والموضوع من الحديث وبالرؤى والمنامات، وبما حرفوه عن ظاهره من القرآن وخالفوا فيه ما عليه أئمة التفسير مثل قوله تعالى: وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ [سورة النساء : ٦٤]، فقالوا: نأتيه إذا ظلمنا وأذنبنا في قبره عليه الصلاة والسلام، ونسأله أن يستغفر الله لنا، وإمام المفسرين ابن جرير - رحمه الله - يقول في تفسيرها: لو أن هؤلاء المنافقين الذين وصف صفتهم في هاتين الآيتين(١) الذين إذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله صدوا صدودًا، إذ ظلموا أنفسهم باكتسابهم إياها العظيم من الإثم في احتكامهم إلى الطاغوت، وصدودهم عن كتاب الله وسنة رسوله إذا دعوا إليها، جاءوك يا محمد حين فعلوا ما فعلوا من مصيرهم إلى الطاغوت راضين بحكمه دون حكمك، جاؤوك تائبين منيبين، فسألوا الله أن يصفح لهم عن عقوبة ذنبهم بتغطيته عليهم، وسأل لهم الله رسوله ﷺ مثل ذلك، وذلك هو معنى قوله: ﴿ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ [سورة النساء: ٦٤](٢)، وكذلك قال في تفسيرها المفسرون المعتبرون عند أهل السنة والجماعة.

فلما لم يوافقهم الشيخ فيما ابتدعوه في الشفاعة جعلوه منكرًا لها مخالفًا بإنكاره ما أثبته المسلمون بزعمهم.

---

(١) هي قوله تعالى: +أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا".

(٢) تفسير الطبري ج(٤/ ١٥٦).

وقالوا: إن الله تعالى قد ملكه الشفاعة فنحن نسأله مما ملكه الله، وهـــذا تضـــليل وضلال، فالله أعطاه الشفاعة وأعطى غيره الشفاعة تكريمًا وتشريفًا، وأمر عباده أن يسألوه وحده، فالله تعالى إذا رضي عن العبد أذن للشافع أن يشفع فيه.

ولو كانت كما يقولون لصارت شفاعة المسلمين كصكوك الغفران التي يصدرها القساوسة والرهبان، فهؤلاء يسألهم النصارى المغفرة ودخول الجنة فيصدرون لهم الصكوك بذلك، وهؤلاء الضلال يسألون الرسول والولي الشفاعة الـــتي يملكهـــا بزعمهم، والشفاعة هي في الحقيقة دخول الجنة والنجاة من النـــار، فـــالفرق أن صكوك النصارى حالةٌ معجلة، وصكوك هؤلاء مؤجلة.

* * *

يقول الشيخ – رحمه الله –: «فإن قال أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتتبرأ منها ؟ فقل: لا أُنكرها ولا أتبرأ منها، بل هو ﷺ الشافع المشفع، وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعة كلها لله، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [ســورة الزمــر: ٤٤]، ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قـــال تعـــالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [سورة البقرة :٢٥٥]، ولا يشفع في أحد إلا من بعـــد أن يأذن الله فيه كما قال عز وجـــل: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ [ســورة الأنبياء :٢٨]، وهو لا يرضى إلا التوحيد، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ

ﭐلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [سورة آل عمران: ٨٥]، فإذا كانت الشفاعة كلها لله، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد.

تبين لك أن الشفاعة كلها لله، فاطلبها منه، وقل اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفعه فيّ، وأمثال هذا.

فإن قال: النبي ﷺ أُعطي الشفاعة، وأنا أطلبه مما أعطاه الله. فالجواب: أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا، فقال: فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا »(١).

وقال: «يزعمون أننا ننكر شفاعة الرسول ﷺ، فنقول: سبحانك هذا بهتان عظيم»(٢).

وقال علماء مكة ونجد: «ونعتقد أن الشفاعة ملك لله وحده، ولا تكون إلا لمن أذن الله له: وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ [سورة الأنبياء:٢٨]، ولا يرضى الله إلا عن مَن اتبع رسله، فنطلبها من الله مالكها، فنقول: اللهم شفع فينا نبيك مثلاً، ولا نقول يا رسول الله اشفع لنا، فذلك لم يرد به كتاب ولا سنة، ولا عمل سلف، ولا صدر ممن يوثق به من المسلمين، فنبرأ إلى الله أن نتخذ واسطة تقربنا إلى الله، أو تشفع لنا عنده، فنكون ممن قال الله فيهم وقد أقروا بربوبيته وأشركوا

---

(١) مؤلفات الإمام محمد ج(١/١٦٥).

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(١/٤٦).

بعباداته: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة يونس : ١٨](١).

* * *

(١) البيان المفيد ص٧.

مسألة الكرامات

الشيخ – رحمه الله – يثبت ويقر للأولياء ما لهم عند الله من الفضل والمترلة التي دلت عليها النصوص، وكتبه ورسائله تؤكد ذلك.

يقول تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة يونس ٦٢]، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»(١).

ومحل التراع والاختلاف في الكرامات وحقوق الأولياء، هو ما ابتدعه الخصوم فيها، فخالفوا به ما عليه السلف الصالح، وذلك بعدم تفريقهم بين مخاريق السحرة والدجالين، ومعجزات الأنبياء، وكرامات الصالحين، ثم ما رتبوه من الاستحقاقات للولي بسببها فغلوا حتى صرفوا له العبادة فألهوه.

والشيخ محمد يقول بالذي تقوله الفرقة الناجية: أن ليس كل من حصل له خارق خارج عن المعتاد كان وليًّا صالحًا، فالخارق يحصل لبعض السحرة والمشعوذين، تعينهم عليه الشياطين، وبالخدعة والتمويه، ولا يكون ذلك كرامة من الله ولا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، ح(٦١٣٧).

صاحبه ولياً لله بل هو ضال، وفتنة يضل الله بها - وهو العدل الذي لا يظلم - من يشاء من عباده. وإنما تُمَيز الكرامة عن غيرها من الخوارق بالنظر إلى عدم مخالفة الكرامة للشريعة والدين، وإلى امتثال صاحبها للشرع ووقوفه عند الأمر والنهي، والغالب في الأولياء أنهم يستترون بكراماتهم خوفًا من الفتنة والرياء.

وخالف الشيخ خصومه في ما يستحقه الولي، فجعل له حق التولي، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة التوبة : ٧١]، وله المحبة والتقدير والاحترام، مع عدم الجزم له بالجنة، ولكن تُرجى له لصلاحه وتقواه، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، إذ يقولون ولا نحكم لأحد من أهل القبلة بجنة ولا نار، ولكن نرجو للمحسنين ونخاف على المسيئين، والحي لا تؤمن عليه الفتنة، وإنما نثبت الجنة لمن أخبرنا رسولنا ﷺ كالعشرة وأهل بدر وعُكاشة رضي الله عنهم أجمعين.

وخصومه غلوا في الأولياء، وجعلوا من مقتضى ولايتهم تعظيم قبورهم، والبناء عليها، وإسراجها، والعكوف عليها والطواف حولها، والذبح والنذر لها، وسؤال الولي الميت كشف الضُّر، وجلب النفع، ومغفرة الذنب، وستر العيب، مما هو حق خالص لله وحده لا يشركه فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولي مكرم.

فلمَّا خالفهم الشيخ في ذلك، جعلوه منكرًا لكرامات ومقامات الأولياء، مبتدعًا لدين جديد، وما أراد إلا إصلاح ما أفسدوه من الدين والعودة بهم إلى ما كان

عليه الصحابة والتابعون، ولكن عزَّ عليهم أن يفارقوا ما ألفوه من البدعة والضلالة، وأن يعرف الشيخ ما جهلوه ونسوه، فأنكروا عليه وخالفوه وبدَّعُوه وكفروه.

* * *

يقول الشيخ محمد - رحمه الله -: «وأقر بكرامات الأولياء، وما لهم من المكاشفات، إلا أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئًا، ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله»(١).

ويقول تلميذه الشيخ عبد العزيز الحصين - رحمه الله - الذي أرسله مناظرًا لعلماء مكة: «وحق أوليائه محبتهم، والترضي عليهم، والإيمان بكرامتهم، لا عبادتهم ليجلبوا لمن دعاهم خيرًا لا يقدر على جلبه إلا الله تبارك وتعالى، ويدفعوا عنهم سوءًا لا يقدر على دفعه إلا الله»(٢).

ويقول الشيخ محمود شكري الآلوسي البغدادي - رحمه الله -: «إن من مكايد الغلاة التي كادوا بها العوام أنهم يقولون: إن الاستغاثة بالأموات ونداءهم في المهمات، هو من علامات محبتهم ومن أنكر ذلك وأبى ما هنالك فهو من المبغضين للصالحين، والمنكرين لكرامات الأولياء والصديقين، كبرت كلمة تخرج من

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(٢٥/١).

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(١١٢/٢).

أفواههم، فإن من أنكر تلك البدع والضلالات هم المحبون لهم، المحافظون على هديهم وطريقتهم»(١).

* * *

(١) غاية الأماني في الرد على النبهاني ج(١/ ٣٧).

الشبهة الثانية: التكفير والقتال

قال خصومه: «كفرتم الأمة بأسرها، وكفرتم من لم يقل بضلالها وكفرها، واستحللتم دماءها وأموالها وسبي ذراريها، وقلتم الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، واشترطتم على من أراد الدخول في دينكم أن يشهد على نفسه ووالديه بالكفر، فمن شهد بذلك قبلتموه ومن أبى قتلتموه، وتريدون بالموحدين الوهابيين وبالمشركين جميع المسلمين دون استثناء، وقاتلتم من قال لا إله إلا الله وصلَّى صلاة المسلمين».

وسبب هذه المقالة والبهتان، أن الإمام محمد يقول: (من صرف العبودية لله ولغيره من المخلوقات كان مشركًا مرتدًّا عن دين الإسلام، إذ لا إله إلا الله تقتضي إفراد الله وحده بالعبادة فمن دعا واستغاث الأموات والغائبين، وطلب كشف الضر وجلب النفع، ونذر وذبح، ونحوها من العبادات لله ولغير الله فقد أشرك وكفر).

والحق أن ما قالوه كذب ومبالغة وبهتان عظيم، وتحريف لقول الشيخ، فالشيخ لم يكفر الأمة ولم يكفر من لم يكفرها، ولم يقل أن الأمة من ستمائة سنة على الكفر والضلال، ولم يستحل الدماء والأموال والأعراض، ولكن الذي قاله الشيخ – رحمه الله –: أن العبد كما يدخل في الإسلام بقوله لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا قالها عُصم دمه وماله، وحسابه على الله، كذلك يرتد عن دين الإسلام بفعله لناقض من نواقض الإسلام، ومن ارتد عن الإسلام وجبت استتابته فإن تاب وإلا قُتل، وليس من أسلم بعد كفره، أو نشأ على الإسلام مأمون عليه الفتنة والردة، نسأل الله لنا وللمسلمين العافية من الحور بعد الكور.

والقرآن الكريم والسنة الثابتة، وأقوال وفعل الصحابة، وأقوال أهل العلم المعتبرين شاهدة لذلك، ولا ينكره إلا جاهل مكابر، فالله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [سورة البقرة :٢١٧]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾ [سورة النساء ١٣٧]، ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الزمر :٦٥] .

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – في الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ »(١).

وفي صحيح البخاري وغيره عن عكرمة أن عليًّا – رضي الله عنه – حرق قومًا، فبلغ ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ الله» ولقتلتهم كما قال النبي ﷺ: «مَن بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوه»(٢).

وأجمع الصحابة – رضي الله عنهم – على قتال المرتدين، والعرب تعددت أسباب ردها، فمنهم من رجع لعبادة الأصنام، ومنهم من شهد أن لا إله إلا الله وأن

---

(١) رواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، ح(١٦٧٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، ح(٢٨٥٤).

محمدًا رسول الله، لكنَّه صدق مسيلمة الكذاب في دعواه النبوة، حين أقام مسيلمة شهودًا يشهدون أن الرسول أشركه معه في النبوة، ومنهم من صدق الأسود العنسي في دعواه النبوة، ومنهم من صدق طليحة الأسدي في دعواه النبوة، وكل هؤلاء المرتدين لم يتردد أحد في تكفيرهم وقتالهم، ومنهم من كانت ردته منعه للزكاة، ظاناً أنها لا تدفع إلا للرسول ﷺ مع قوله للشهادتين، فعزم الصديق – رضي الله عنه – على قتالهم، فقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في هؤلاء خصوصًا: أتقاتلهم وقد قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا الله فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا»(١)، فقال الصديق: الزكاة من حقها، لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمت أنه الحق.

قال ابن حجر – رحمه الله – في الفتح: وفي القصة دليل على أن السنة قد تخفى على بعض أكابر الصحابة، ويطلع عليها آحادهم، ولهذا لا يلتفت إلى الآراء ولو قويت، مع وجود سنة تخالفها، ولا يقال كيف خفي ذا على فلان(٢).

وأهل العلم والفقه فقد أجمعوا على قتل المرتد، ذكره ابن قدامة في المغني، وهذه مؤلفات أئمة المذاهب الفقهية تجعل للمرتد فصلاً تذكر فيه كيف تحصل الردة وحكم صاحبها؛ ففي الإقناع يقول الحجاوي – رحمه الله – : «باب حكم المرتد وهو الذي يكفر بعد إسلامه، فمن أشرك بالله أو جحد ربوبيته، أو وحدانيته، أو

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ح(١٣٣٥).

(٢) فتح الباري ج(١)، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم.

صفة من صفاته ... أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعًا»، وللشيخ عبد الله بن محمد رسالة نقل فيها أقوال الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة في أنواع المكفرات التي يقع فيها الناس عمدًا وجهلاً(١).

فهنا أمور بينات واضحات لمن طلب الحق:

الأولى: أن الشرك، وهو جعل الأنداد لله يدعوهم ويتوكل عليهم، ويخافهم، ويرجوهم، ويسألهم، ويذبح وينذر لهم مع الله، ويقول: هؤلاء شفعائي ووسيلتي إلى الله، كفر مخرج من الملة، والقرآن والسنة والإجماع شاهد لذلك، ومن العجب أن تحتاج هذه المسألة التي لأجلها أرسل الرسل جميعًا لأقوامهم إلى استدلال وبيان، ولكن كما أخبر ﷺ أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وكما قال الفاروق عمر - رضي الله عنه -: إنما تُنقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية، وقال سفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى -: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

والثانية: أن المرتد بالشرك أو غيره من المكفرات يستتاب فإن تاب وإلا قُتل، وهذا في الواحد المعين الذي ليست له شوكة ومنعة، أما الجماعة المتظاهرة على الردة فإنها تقاتل كما قاتل الصديق المرتدين، ومنهم من ردته منع الزكاة وهي أهون من الشرك بلا نزاع.

والثالثة: أن القتال ليس مستلزمًا لتكفير المقاتل، فالخوارج يقاتلون مع أن الراجح عند أكثر أهل العلم عدم كفرهم، والبغاة يقاتلون، وهم من خرج على الإمام

---

(١) انظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(١٠)، ١٤٩-١٩٦.

بتأويل سائغ(١) ولهم منعة وشوكة، مع الإجماع على عدم كفرهم بخروجهم وبغيهم، فليس كل من قاتلهم الشيخ كان سبب قتالهم الشرك والردة، بل أولُ قتاله وبعضه دفاعًا عن النفس والحرمة لما جاؤوهم باغين معتدين، والغالب في قتاله لمناوئيه هو ردهم وعداوتهم لما دعاهم إليه من التوحيد والبراءة من الشرك.

فالشيخ - رحمه الله تعالى - ومن تابعه كانوا يريدون إصلاح الخلل العظيم الذي وقع فيه كثير من الناس، والعودة بهم إلى الدين الذي كان عليه السلف الصالح، ولما كان هذا الخلل هو الشرك بالله وجعل الأنداد له، الذي هو كفر وردة عن دين الإسلام، سعوا بالتعليم والإرشاد والمكاتبات، ثم إلى الجهاد والقتال حتى يفيء الناس إلى دين الله، ولم يكونوا بقتالهم لمن ارتد وأشرك مبتدعين ولا جافين، ولكن متبعين ممتثلين لأمر الله وأمر رسوله، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة :٢٢].

ولا يظن ظان أن المسلمين في قتالهم كالكفار، الذين يقاتلون للدنيا والمال والسلطان والاستكبار، ولكن قتالهم كان امتثالاً لأمر ربهم ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السُفلى، وشفقة بالناس من الضلال والهلاك والعذاب.

وخصوم الشيخ يستدلون لإنكارهم عليه قتاله لمن قال لا إله إلا الله، بقصة أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - حِبُّ حِبِّ رسول الله ﷺ، حين قتل من لاذ بشجرة وقال: لا إله إلا الله، وبما رواه أحمد أن رجلاً سارَّ رسول الله ﷺ، فإذا هو

---

(١) المراد بالتأويل السائغ الشبهة المحتملة التي ظنوا بسببها جواز الخروج على إمام المسلمين.

يستأذنه في قتل رجل من المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله قَالَ: الأَنْصَارِيُّ بَلَى يَا رَسُولَ الله وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله وَلا شَهَادَةَ لَهُ، أَلَيْسَ يُصَلِّي؟ قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ الله وَلا صَلاةَ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَهَانِي الله عَنْ قَتلِهم»(١)، وبقوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ الله فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّهَا»(٢)، فقال الصديق رضي الله عنه: الزكاة من حقها.

فسبحان الله ! كيف فهموا منها ما لم يفهمه الصديق والصحابة – رضي الله عنهم – حين قاتلوا من قال لا إله إلا الله وصلَّى، وهذا كافٍ لرد باطلهم، ولكن نزيد لعلهم يعقلون، فنقول في قصة أسامة – رضي الله عنه – أن هذا المشرك حين تشهد دخل في الإسلام بشهادته فعُصم ماله ودمه، ووجب على المسلمين الكف عنه وعدم التنقيب عن باطنه، وهذا ما لم يفعله أسامة، إذ قال: إنه لم يقلها إلا لدرء القتل عن نفسه، يعني: أنه لم يسلم حقًّا، لذا أنكر عليه رسول الله ﷺ فعله، وكرر عليه الإنكار، أما إذا قالها وفعل أو قال ما يناقضها من الشرك كسب الرسول والقرآن، والاستهزاء بالدين ونحوها من المكفرات فإنه يكون مرتدًّا، وإن قال: لا إله إلا الله وصلَّى وصام، فيجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل.

أما الحديث الثاني فهذا في منافق أظهر الإسلام واستتر بكفره، ولم يظهر منه ناقضٌ للإسلام، فهؤلاء هم من نُهيَ رسول الله ﷺ عن قتلهم.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، م٥/ مسند الأنصار، حديث عبيد الله بن عدي الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة ح (١٣٣٥).

وأما الحديث الثالث فقد ردَّ الصديق - رضي الله عنه - الاحتجاج به في مسألة أهون من الشرك، ووافقه الصحابة فكان إجماعًا، ثم لو قيل لهم أترضـون بهـذا الحديث في عصمة دم ومال من لم يشهد أن الرسول حق، أو سـب واسـتهزأ بالدين، أو نحو ذلك من المكفرات، فجوابهم لذلك، هو الجواب فيمَنْ أشرك مـع الله أحدًا، بل التوحيد هو ألزم حقوق لا إله إلا الله وهو معناها ومقتضاه.

وأهل السنة والجماعة، والشيخ عالم من علمائهم، وسط في باب التكفير والقتال، بين الخوارج والمرجئة، فالخوارج غلوا فكفروا وقاتلوا من ارتكب الكبيرة، واتهموا الصحابة بذلك فكفروهم وقاتلوهم، وكذلك كفروا وقاتلوا أئمة المسـلمين إذا ظلموا وجاروا. والمرجئة فرطوا فحكموا بالإسلام والإيمان الكامل على من قال: لا إله إلا الله، ولو استحل الزنى والحرام.

وهذا الدين تام كامل رضيه الله لنا، فيه الخير كله في الدنيا والآخرة، وأحكامـه عدل وحكمة وصلاح للناس في عاجل أمرهم وعاقبتهم، فكما أن تكفير المسلمين بالذنوب وقتالهم عليها بغي وظلم وعدوان، فكذلك التفـريط وعـدم الإنكـار والأخذ باليد والقتال، - إن لزم الأمر - على من فرط في الدين فأشرك بالله تعالى وعبد مع الله القباب والمشاهد التي على القبور، وذبح ونذر لها وطاف وسـجد لها، ودعا وسأل أهلها دفع الضر وجلب النفع، أو استهزأ بالدين وأهله أو فعـل وقال ما هو كفر وردة، التفريط مع هؤلاء المرتدين فتنة للناس، والفتنة أشد مـن القتل، وسبب للضلال والفساد، ومخالفة لأمر الله تعالى وأمر رسوله فيهم، ومخالفة لهدي الصحابة مع أمثالهم.

والشيخ – رحمه الله – كان يشدد في باب التكفير فلم يكفر إلا ما أجمعت الأمة على تكفيره، لذا لم يكفر من ترك الصلاة تكاسلاً عنها[1]، لأن الثلاثة والرواية الثانية عن أحمد(٢) والتي اختارها المصنف والشارح أنه لا يكفر، وخالفه كثير من تلاميذه في هذه المسألة فكفروا من تركها كسلاً عنها، تبعًا للراجح في مذهب أحمد وقول كثير من السلف، لقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [سورة التوبة : ١١]، وقوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [سورة الماعون : ٤-٥]، وما رواه مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ»(٣)، وما رواه الترمذي عن بريدة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»(٤)، قال الترمذي حديث حسن صحيح.

* * *

---

(١) أنظر مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب المجلد الرابع، الفتاوى والمسائل ص ٩٠

(٢) الثلاثة هم أبو حنيفة ومالك والشافعي والمصنف موفق الدين عبد الله بن قدامة والشارح شمس الدين عبد الرحمن بن قدامة.

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، ح(٨٢).

(٤) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، ح(٢٧٥٦)، وقال: حسن صحيح غريب.

وهذه مجموعة من أقوال الشيخ وتلاميذه شاهدة على ما يدينون الله به في مسألة التكفير والقتال، ومن زعم ضدها فليأتِ بالدليل والبرهان، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة البقرة :١١١] .

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في رسائل متفرقة: «لم نكفر المسلمين بل ما كفرنا إلا المشركين، وما ذكره الأعداء عني أني أكفر بالظن والموالاة أو الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة فهذا بهتان عظيم يريدون به تنفير الناس عن دين الله ورسوله، والرجل افترى عليَّ أمورًا لم أقلها، ولم يأت أكثرها على بالي فمنها قوله: أني أقول الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء وأني أكفر من توسل بالصالحين وأكفر البوصيري(١) وأكفر من حلف بغير الله فجوابي عن هذه المسائل أن أقول سبحانك هذا بهتان عظيم. وتمويهه أن ابن عبد الوهاب يقول: الذي لا يدخل تحت طاعتي فهو كافر.

فنقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نُشهِدُ الله على ما يعلمه من قلوبنا بأن من عمل بالتوحيد، وتبرأ من الشرك وأهله، فهو المسلم في أي زمان وأي مكان، وإنما نكفر من أشرك بالله في ألوهيته، بعد ما نبين له الحجة على بطلان الشرك، وكذلك نكفر من حسنه للناس، أو أقام الشبه الباطلة على إباحته، وكذلك من قام بسيفه دون هذه المشاهد التي يُشرك بالله عندها، وقاتل من أنكرها وسعى في إزالتها»(٢).

(١) قد يقول الإنسان ما هو كفر، ولا يلزم منه تكفيره إلا بعد تحقق شروط وانتفاء موانع التكفير.

(٢) مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب ج(٦/ ٦٠).

ثم يتعجب الشيخ ممن يصدق هذه الأكاذيب إذ لا يتصور صدورها من مسلم عاقل.

ويقول في القتال في رسالة له بعد أن بيَّن حقيقة ما يدعو إليه من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله: «فهذا الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم، وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة، ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة :١٩٣]. فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان، قاتلناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الحديد :٢٥]»(١).

ويقول تلميذه الشيخ العلامة حمد بن ناصر في جوابه للسائل هل تُكَفِّرون بالمعاصي؟ «ليس هذا قولنا، بل هذا قول الخوارج، الذين يكفرون بالذنوب، و لم نكفر أحدًا بفعل المعاصي، بل نكفر من فعل المكفرات، كالشرك بالله بأن يعبد

(١) مؤلفات الإمام محمد ج(١١٤/٦).

معه غيره، فيدعو غير الله، أو يذبح له، أو ينذر له، أو يخافه أو يرجوه أو يتوكل عليه، فإن هذه كلها عبادة لله بنص القرآن»(١).

ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: «من يعرف سيرة الشيخ يعلم أنه من أعظم الناس إجلالاً للعلم والعلماء، ومن أشد الناس نهيًا عن تكفيرهم وتنقصهم وأذيتهم، بل هو ممن يدين بتوقيرهم وإكرامهم والذبِّ عنهم، والأمر بسلوك سبيلهم، عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة التوبة :٧١]، وبقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [سورة الحشر : ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة يونس : ٦٢-٦٣]، فالإيمان والتقوى هما أصل العلم بالله وبدينه وشرعه، فكيف يظن بمسلم فضلاً عن شيخ الإسلام أنه يكفر العلماء؟ والشيخ - رحمه الله - لم يكفر إلا من كفره الله ورسوله وأجمعت الأمة على كفره؛ كمن اتخذ الآلهة والأنداد لرب العالمين»(٢).

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(١٠/ ٣٣٨).

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ج(٣/ ٤٤٩).

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا: «بل في هذه الكتب - كتب الشيخ وتلاميذه - خلاف ما ذُكِرَ وضده، ففيها أنهم لا يكفرون إلا من أتى بما هو كفر بإجماع المسلمين»(١).

فهذه بعض من ردود الشيخ وتلاميذه على هذه الفرية التي لا دليل لأصحابها عليها إلا الظن وتحريف الكلام والكذب المقصود، ولا يجرؤ عليها اليوم إلا من كان الكذب دينهم من الرافضة، أو الجهل والهوى شعارهم.

* * *

(١) مقدمة صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان ص ٥١٨.

الشبهة الثالثة: تكفير الآباء والأموات

قالوا: مقتضى كلام الشيخ في تكفير من أشرك بالله بدعائه وسؤاله من الأنبياء والصالحين، هو تكفير كثير من الآباء، وأن الناس وقعوا في الشرك وماتوا عليه، إذ من المعلوم أن هذا الفعل كان شائعًا في بلاد المسلمين، ولا يزال موجودًا في بعض منها. ويستدلون على عدم كفر هؤلاء بحديث أن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب، فكيف يجوز أن يقع الشرك فيها.

هذه شبهتهم، والحق أن الشيخ لم يكفر الأموات و لم يتعرض لهم، وقال: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون، وقال تلاميذه: أن من كان من الأموات معروفًا بالشرك فهو مشرك، ومن لا فلا.

وعجيبٌ أن يُستنكر وقوع الشرك والضلال بعد وفاة النبي ﷺ بمئات السنين، وقد وقع ذلك والصحابة متوافرون، فقد ارتدت قبائل بعد موته ﷺ، فمنهم من عاد للجاهلية والشرك، ومنهم من ادعى النبوة وتبعه قومه وصدقوه، ومنهم من منع الزكاة، فقاتلهم جميعًا الصديق والصحابة رضوان الله عليهم، حتى فاؤوا للحق ورجعوا للدين، وكذلك خرجت الخوارج ومن بعدهم الروافض والقدرية والجهمية، وفي الناس بقية الصحابة وأعلام التابعين، ومن بعدهم قامت دولة القرامطة الباطنية الكفرة بإجماع المسلمين في شرق الجزيرة، وسفكوا الدماء الحرام ببيت الله الحرام، وأخذوا الحجر الأسود لبلادهم ومكث عندهم اثنتين وعشرين سنة، حتى أعاده الله تعالى لموضعه ومكانه بالبيت، وبعدهم قامت دولة العبيدين الباطنيين والكفرة بإجماع علماء المغرب ذاك الزمان.

أما هذا اليأس من العدو المذكور في الحديث، فمعناه عند أهل العلم: أن اللعين لما رأى ظهور الإسلام وعز أهله، وتهدم صروح الشرك والضلال، وذُل أهله، يـأس في ذلك الوقت من أن يعود الناس لضلالهم وشركهم، و لم يحمله يأسه عن القعود عن الصدِّ والإضلال، فهو قد أقسم على السعي في الإغواء إلى يوم يبعثون، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف ١٤-١٧].

ثم إن هذا التعصب للآباء والأجداد هو ما أضل كثيرًا من الناس فقريش رأت في دين محمد ﷺ مسبة لآبائها وأجدادها، فأنفت عن الانقياد والاستسـلام للحـق يقول تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الزخرف : ٢٢-٢٣]، ويقول تعالى حاكياً اعتذارهم ودعائهم على من أضلهم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: ٦٧-٦٨]. ويقول أبو طالب – وقد علم أن ابن أخيه صادق، ولكن تعظيمه المذموم للآباء منعه من المتابعة والانقياد:

فوالله لولا أن أجيء بسبـــة   تجر على أشياخنا في المحافل

لكنَّا اتبعناه على كل حالة   من الدهر جدا غير قول التهازل

وهذا خليل الرحمن إبراهيم ــ عليه السلام ــ كان أبوه كافرًا، وقد دعاه ونصحه فاستكبر، فلما تبين لإبراهيم أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لحليم أوَّاه منيب.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [ســـورة التوبة :١١٤]، وكذلك نوح – عليه السلام – مات ابنه غرقًا كافرًا، فدعا ربه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة هود : ٤٥-٤٧]، وكذلك سيد المرســلين مات عمه كافرًا وأنزل الله فيه قرآنًا يتلى إلى يوم الــدين: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة المســد ١-٥].

وليس في ذلك غضاضة ولا نقص من مقامهم العالي الرفيع، ولكنها عظة من الله تعالى وبيان للناس أجمعين، أن الهداية من الله تعالى، إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وأن المال والحسب والجاه لا يغني من الله شيئًا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. والرسول الكريم أكرمه الله وشرفه بالرسالة والتبليغ، وهداية التبيين والتوضيح، والدلالة للطريق، قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [سورة النور : ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٨].

والعجب أكبر، من استنكارهم لفشو الشرك والانحراف والضلال، والنصوص دالة على أن الدين يعود غريبًا كما بدأ، وأن الفساد والبغي يكثر، والشرك والضلال يحصل، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال ﷺ: «بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ»(١)، وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكتموه. قُلنا يَا رَسُولَ اللهِ اليهود والنصارى؟ قَالَ فَمَنْ»(٢). وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وإنه يأرز بين المسجدين، ح(١٤٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، ح(٣٢٦٩) .

أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الْخَلَصَةِ»(١)، وفي صحيح مسلم قال ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»(٢) .

والحكم على من واقع وتلبَّسَ بهذه الاعتقادات والأعمال والأقوال الشركية عند القبور ولأصحاب القبور، بالشرك والارتداد عن دين الإسلام ليس تنفيرًا ولا جفاء وتشددًا، بل هو ما دلَّتْ عليه النصوص، وهو عين الرحمة والشفقة على الناس أن يتهاونوا بهذا الأمر العظيم فيموتوا على الشرك الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء :٤٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الزمر :٦٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [سورة المائدة :٧٢].

وثمرة هذا الحكم عظيمة جليلة متعددة:

أولها: تخويف المشركين من الشرك، وأنهم غير معذورين باتباعهم لعلماء الجهل والضلال وللآباء والكبراء، والاعتذار بأنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، وبأنا اتبعنا سادتنا وكبراءنا.

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخَلَصة، ح(٢٥٩٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: لا تزال طائفة من أمتي، ح(١٩٢٠).

والثانية: الخوف من الشرك والتحذير من الوقوع فيه جهلاً وغفلة؛ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون.

والثالثة: الحرص على العلم خصوصًا في مسائل أصول الدين، فالتقليد جائز في الفروع ممنوع في الأصول.

والرابعة: عدم جواز الاستغفار لمن مات على الشرك والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين، وعدم حل ذبيحته وعدم التوارث بينه وبين المسلمين وبطلان نكاحه وولايته، وغير ذلك من المسائل الفقهية.

وليتقِّ الله في هؤلاء، مَنْ انتسب إلى العلم، ثم غرَّهم بأنهم معذورون لجهلهم، والقرآن بين أيديهم وهم عنه وعن أقوال أهل العلم، وعن التعلم ساهون معرضون، فيحتجون بقوله، ويأمنون به من الخوف الذي يسوقهم للتعلم والتفقه في دينهم الذي ما خُلقوا إلا له.

وخصوم الشيخ شنعوا عليه مخالفة أخيه سليمان له، وكتابته في ذلك الردود، مع أن الراجح توبته من قبيح فعله وخلافه، وظنوا ذلك، وفرحوا به، دليلاً على بطلان ما دعاهم الشيخ له من التوحيد والإخلاص، ونسوا وأعرضوا عن آيات القرآن، وفيها مخالفة الآباء والأبناء والأعمام للأنبياء، وعداوتهم لهم، قال تعالى حاكيًا رد آزر لابنه الخليل إبراهيم: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [سورة مريم: ٤٦]، ثم الحسد بين الأقارب أشد وأنكى، قال طرفة بن العبد في معلقته:

وظلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً ... على المرءِ من وقعِ الحُسامِ المُهنَدِ

وفي الحماسة قال الفضل بن العباس:

مَهْلاً بَني عَمِّنا مَهْلاً مَوَالِينا   لا تَنْبُشُوا بيننا ما كان مَدْفُونَا
لا تَطْمَعُوا أن تُهِينُونَا و نُكْرِمَكُمْ   وأنْ نَكُفَّ الأذَى عنكم وتُؤذُونَا
مَهْلاً بنِي عَمِّنَا عَنْ نَحْتِ أثْلتِنَا   سِيرُوا رُوَيداً كَما كُنْتُم تَسِيرونَا

وهؤلاء أخوة يوسف عليه وعليهم السلام، وهم الأسباط حسدوه حب أبيه يعقوب عليه السلام له، فقالوا: اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين، فمكروا به وكادوه، فألقوه في غيابة الجب، وباعوه بثمن بخس، دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين.

* * *

وهذه أقوال الشيخ وتلاميذه فيمن مات قبل ظهور دعوة الشيخ الإصلاحية، قال الشيخ – رحمه الله –: «ولكن من أظهر الإسلام وظننا أنه أتى بناقض، لا نكفره بالظن؛ لأن اليقين لا يرفعه الظن، وكذلك لا نكفر من لا نعرف منه الكفر، بسبب ناقض ذُكر عنه ونحن لم نتحققه»(١).

وقال ابناه الشيخان حسين وعبد الله – رحمهما الله –: «من مات من أهل الشرك قبل بلوغ هذه الدعوة فالذي يُحكم عليه أنه إذا كان معروفًا بفعل الشرك ويدين به ومات على ذلك، فهذا ظاهره أنه مات على الكفر، ولا يُدعى له ولا يُتصدق

(١) مؤلفات الإمام محمد ج(٦/٢٤).

عنه، وأما حقيقة أمره فإلى الله تعالى، فإن كان قد قامت عليه الحجة في حياته، وعاند فهذا كافر في الباطن والظاهر»(١).

وقال الشيخ حمد بن ناصر بن معمر – رحمه الله –: «الذين نشئوا بين الكفار وأدركوا آباءهم على الشرك، هم كآبائهم كما دل عليه الحديث الصحيح في قوله: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(٢) ، فإن كان دين آبائهم الشرك بالله، فنشأ هؤلاء واستمروا عليه فلا نقول الأصل الإسلام والكفر طارئ عليهم بل نقول هم الكفار الأصليون، ولا يلزم منا على هذا تكفير من مات في الجاهلية قبل ظهور الدين، فإنا لا نكفر الناس بالعموم، كما أنا لا نكفر اليوم بالعموم. بل نقول من كان من أهل الجاهلية عاملاً بالإسلام تاركًا للشرك فهو مسلم، وأما من كان يعبد الأوثان ومات على ذلك قبل ظهور هذا الدين فهذا ظاهره الكفر، وإن كان يحتمل أنه لم تقم عليه الحجة الرسالية لجهله وعدم من ينبهه إلا أنا نحكم على الظاهر، وأما الحكم على الباطن فذلك إلى الله تعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ [سورة الإسراء :١٥](٣)، وقال أيضًا: «وأما من كانت حاله حال أهل الجاهلية لا يعرف التوحيد الذي بعث الله به رسوله يدعو إليه، ولا الشرك الذي بعث الله رسوله ينهى عنه، ويقاتل عليه، فهذا لا يقال: إنه مسلم لجهلة، بل من كان ظاهر عمله الشرك بالله فظاهره الكفر لا يستغفر له، ولا يتصدق عنه، ونكل حاله إلى

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(١٠/١٤٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، ح(١٣١٩).

(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(١٠/ ٣٣٥-٣٣٦).

الله الذي يعلم السرائر ويعلم ما تخفي الصدور»(١)، يعني: في الآخرة فإن الله لا يعذب إلا بعد قيام الحجة.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله ابن الإمام محمد: «وأما قول الإنسان لا إلـه إلا الله من غير معرفة لمعناها ولا عمل به، أو دعواه أنه من أهل التوحيد وهو لا يعرف التوحيد بل ربما يخلص لغير الله في عبادته من الدعاء والخوف، والذبح، والنذر، والتوبة، والإنابة وغير ذلك من أنواع العبادات، فلا يكفي في التوحيد بل لا يكون إلا مشركًا والحال هذه»(٢).

* * *

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ج(٥/ ٦٤٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ١٤٠. فلا يكفي في تحقيق التوحيد مجرد اللفظ، بل لابد من معرفة المعنى تحقيقه.

الشبهة الرابعة: المبالغة في تصوير فشو الشرك

قال بعض المؤرخين المتأخرين، وتابعهم آخرون: أن هناك مبالغة في تصوير فشو الشرك والبدع، والضلالات بين الناس وقت الشيخ، فأكثر الناس على التوحيد والإخلاص، وإنما ضل بعض الجهال في اعتقادهم في الأولياء والصالحين.

وأقول: هذه الشبهة متأخرة، وقائلها من حيث يدري أو لا يدري، ينكر على الشيخ هذا الجهاد والقتال لإزالة الشرك من البلاد والعباد، ورد هذا القول من وجوه متعددة، أولها: أن ما يقوله يتعارض مع أقوال خصوم الدعوة الذين عاصروها وعايشوها، فهم يستدلون لصحة أقوالهم أنهم الأكثر، وهم الجماعة، وهم السواد الأعظم، وقول الشيخ شاذ مخالف ما عليه الناس، والشيخ لم ينكر عليهم هذا القول، وإنما نفى أن يكون دليلاً صحيحًا يستدل به، يقول الشيخ: «إذا عرفتم هذا فلا يخفى عليكم ما ملأ الأرض من الشرك الأكبر فهذا يأتي إلى قبر نبي، وهذا إلى قبر صحابي كالزبير وطلحة، وهذا إلى قبر رجل صالح، وهذا يدعوه في الضراء وفي غيبته، وهذا ينذر إليه وهذا يذبح للجن، وهذا يدخل عليه – يلجأ به – من مضرة الدنيا والآخرة، وهذا يسأله من خير الدنيا والآخرة، فإن كنتم تعرفون أن هذا من الشرك كعبادة الأصنام، والذي يخرج الرجل من الإسلام، وقد ملأ البر والبحر، وشاع وذاع، حتى إن كثيرًا ممن يفعله يقوم الليل ويصوم النهار، وينتسب إلى الصلاح والعبادة.»(١).

(١) مؤلفات الإمام محمد ج(١٢٦/٦).

والثاني: أن الإمام الصنعاني لما سمع بالشيخ وما يدعو إليه فرح، وكتب قصيدته المشهورة في مدح الدعوة وإمامها وقال فيها وهو الشاهد:

و ينشرُ جهرًا ما طوى كل جاهلٍ ومبتدعٍ منه فوافقَ ما عندي
و يعمُر أركانَ الشريعةِ هادمًا مشاهدَ ضلَّ الناسُ فيها عن الرشدِ
أعادُوا بها معنى سِواعَ و مثلَه يغوثَ وودٍّ بئس ذاك من ودِ
و قد هتفوا عند الشدائدِ باسمِها كما يهتفُ المضطرُ بالصمدِ الفردِ
وكمْ عقرُوا في سَوحِها من عقيرةٍ أُهلت لغيرِ اللهِ جهرًا على عمدِ
وكَمْ طائفٍ حولَ القبورِ مُقبلٍ ومستلمِ الأركانِ منهنَّ باليدِ
لقدْ سرَّني ما جاءَ من طريقةٍ وكنتُ أرى هذي الطريقةَ لي وحدي

فانظر إلى قوله - رحمه الله - وكنت أرى هذي الطريقة لي وحدي.

والثالثة: أن المؤرخين زمن الشيخ كأمثال الشيخ ابن غنام، وبعده ابن بشر - رحمهم الله - رجال ثقاة أثبات، وقد صوروا حال زمانهم وهم به أعلم وألصق، فكيف يجوز تكذيبهم دون دليل وبرهان، يقول ابن غنام، واصفًا حال الناس قبل ظهور دعوة الشيخ: «كان أكثر الناس في مطلع القرن الثاني عشر الهجري قد ارتكسوا في الشرك، وارتدوا إلى الجاهلية وانطفأ في نفوسهم نور الهدى، لغلبة الجهل عليهم، واستعلاء ذوي الأهواء والضلال، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم من الضلالة، وقد ظنوا أن آباءهم أدرى بالحق وأعلم بالصواب، فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين، أمواتهم وأحيائهم،

يستغيثون بهم في النوازل والحوادث، ويستعينونهم على قضاء الحاجات وتفريج الشدائد»(١)، ثم أخذ يعدد ويذكر هذه المشاهد والقباب التي بنيت على القبور وما يفعل عندها من الشرك البواح، في نجد والحجاز، ومصر وصعيدها، واليمن وحضرموت، وحلب ودمشق، وفي الموصل والعراق، حتى قال: إن هذا لا يخفى على أحد من الناس لكثرته وشيوعه.

والوجه الرابع: ما حكاه أهل العلم قبل زمن الشيخ بقرون، من تفشي الشرك وعموم الابتلاء به، فأبو شامة الشافعي - رحمه الله - في أوائل القرن السابع يقول: «ومن هذا القسم أيضًا ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد، وإسراج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شُهِر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه، مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم يتقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظُم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها ويرجون الشفاعة لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي بين عين وشجر، وحائط وحجر».

وكذلك قال أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي - رحمه الله - من علماء القرن السادس: «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم .. وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور وإكرامها، وإلزامها ما نهى عنه الشرع من إيقاد السروج، وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها يا مولاي افعل بي كذا وكذا».

وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية وشمس الدين ابن القيم وغيرهم من العلماء.

---

(١) تاريخ ابن غنام ج(١/ ١٠-١٩).

والخامسة: أنه من المعروف اليوم عند الخاص والعام أن تلك الفترة الزمنية من عمر الأمة المحمدية زمن جهل وضلال وتخلف سبَّبَ ضعف الأمة وضياعها وتسلط أعدائها عليها.

والسادسة: أن ما استكثروه وظنوه مبالغة موجود اليوم في كثير من بلاد الإسلام مع انتشار العلم والتعليم والمعارضة والإنكار على أهله من العلماء والدعاة.

* * *

الشبهة الخامسة: ادعاء الاجتهاد

قالوا إن الشيخ يدَّعي الاجتهاد، وأنه يخالف العلماء، وأتى الناس بمذهب فقهي خامس جديد.

وهذه الشبهة سببها أن الشيخ خالف المذهب الحنبلي في مجموعةِ مسائلَ فقهيةٍ فرعية، مثل القول: بأن الجد كالأب يحجب الإخوة خلافًا للمذهب، وقوله بعدم وجوب صوم يوم الشك، وهو يوم الثلاثين من شعبان إذا حال دون الرؤية في ليلته غيم أو قتر، وقوله بتحريم وقف الجنف والإثم، وهو الوقف على بعض الورثة تحايلاً على ما قسمه الله تعالى في كتابه للورثة، وامتداد وقت الأضحية حتى نهاية اليوم الثالث من أيام التشريق، وجواز جعل العروض رأس مال في المضاربة، ونحو ذلك من المسائل، وعامة العلماء ذاك الوقت فيهم تعصب لأئمتهم وتقليد محض لمذاهبهم، حتى كان الناس في الحرم الشريف يصلون أربع جماعات، الأحناف لهم جماعة، وكذلك المالكية، والشافعية، والحنابلة، وهذا من التفرق والاختلاف الذي نهانا الله عنه، وحذرنا منه رسوله ﷺ، ولو رأى الأئمة الأربعة ذلك لساءهم وأحزنهم، إذ هو خلاف أمرهم ونهيهم.

والشيخ – رحمه الله تعالى – لم يدعِ الاجتهاد المطلق لنفسه بل عد نفسه منتسبًا ومتبعًا لمذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولكن متى ما كان الدليل مع غيره من العلماء، تبع الدليل ونبذ التعصب والتقليد، وهذا هو الذي أمرنا الله، وأمرنا رسوله ﷺ به، وكذلك هو ما دعا إليه أهل العلم أجمعون، وأقوالهم في ترك تقليدهم واتباع الدليل إذا استبان مشهورة محفوظة، وهذه المسائل التي خالف فيها

الإمام محمد المذهب، وافق فيها قولاً آخر في المذهب، أو جمهور العلماء أو قول جمع من أهل العلم، وليس له قول واحد خالف فيها إجماعًا أو شذَّ به.

ومع ما يكنه الإمام محمد بن عبد الوهاب لشيخ الإسلام ابن تيمية من التقدير والتعظيم، فقد خالفه في مجموعة من المسائل الفرعية التي خالف فيها شيخ الإسلام المشهور والجمهور، وشيخ الإسلام مجتهد له دليله وحجته وهو في اختياره لم يخالف إجماعًا وهو بين أجر أو أجرين. وكأن القاعدة عند الإمام محمد في المسائل الفرعية مخالفة المذهب متى ما كان الدليل المخالف جليًّا واضحًا أما ما تشابه من المسائل وتقاربت فيه الأدلة فيلتزم المذهب ولا يعدوه.

والمنصف يرى الشيخ وتلاميذه ممن مهدوا في هذا العصر لهدم صروح التعصب المذموم للمذاهب الفقهية الأربعة السائدة بين أهل السنة والجماعة، والدعوة إلى التوازن في الأخذ بأقوال الأئمة المتبوعين، فلا هجران ورفض لهذه الثروة الفقهية التي خلفها هؤلاء الأئمة وأتباعهم، ولا غلو في التقليد، بل متى ما كان الدليل صريحًا بينًا، وجب المصير إليه وترك المذهب، وهذا هو ما أمرنا الله به وأمرنا به رسوله ﷺ، وكان عليه السلف، ودعا إليه هؤلاء الأئمة الأربعة، وغيرهم من أعلام علماء المسلمين.

* * *

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب في ذلك:

«ينبغي للمؤمن أن يجعل همه ومقصده معرفة أمر الله ورسوله في مسائل الخلاف، والعمل بذلك، ويحترم أهل العلم ويوقرهم ولو أخطؤوا، ولكن لا يتخذهم أربابًا من دون الله فهذا طريق الضالين، أما إطراح كلامهم وعدم توقيرهم فهو طريق المغضوب عليهم»(١).

ويقول الشيخ: «نحن ولله الحمد متبعون لا مبتدعون على مذهب الإمام أحمد بن حنبل». وقال: «إذا اختلف كلام أحمد وكلام الأصحاب، فنقول في محل النزاع التراد إلى الله وإلى رسوله ﷺ، لا إلى كلام أحمد ولا إلى كلام الأصحاب، ولا إلى الراجح من ذلك، بل قد يكون الراجح والمرجوح من الروايتين والقولين خطأ قطعًا»(٢).

وفصل وبيَّنَ – رحمه الله – في حدود الإنكار في مسائل الخلاف فقال: «أما قول من قال لا إنكار في مسائل الاجتهاد، فإن أراد القائل مسائل الخلاف فهذا باطل يخالف إجماع الأمة، فما زال الصحابة ومن بعدهم ينكرون على من خالف وأخطأ كائنًا من كان .. وإذا أريد مسائل الخلاف التي لم يتبين فيها الصواب، فهذا كلام صحيح»(٣).

وقال – رحمه الله –: «وأما هذا الخيال الشيطاني الذي اصطاد به الناس، أن من سلك هذا المسلك فقد نسب نفسه للاجتهاد، وترك الاقتداء بأهل العلم، وزخرفه

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ج١/١٢.

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج٤/٨.

(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج٤/٨.

بأنواع الزخارف، فليس هذا كثير من الشيطان وزخارفه، كما قال تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [سورة الأنعام:١١٢] ، فإن الذي أنا عليه وأدعوكم إليه هو في الحقيقة الاقتداء بأهل العلم، فإنهم قد أوصوا بذلك»(١).

ويقول ابنه الشيخ عبد الله:

«ونحن في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولا ننكر على من قلد أحد الأئمة الأربعة دون غيرهم لعدم ضبط مذاهب الغير»(٢). ويقول: «إذا تفقه الرجل في مذهب من المذاهب الأربعة، ثم رأى حديثًا يخالف مذهبه، فاتبع الدليل وترك مذهبه، كان هذا مستحبًّا، بل واجبًا عليه إذا تبين له الدليل، ولا يكون بذلك مخالفًا لإمامه الذي اتبعه، فإن الأئمة كلهم متفقون على هذا الأصل، أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رضي الله عنهم أجمعين»(٣).

وقال: ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق، ولا أحد منا يدعيها، إلا أنَّا في بعض المسائل إذا صح لنا نص جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه، وقال به أحد الأئمة الأربعة، أخذنا به وتركنا المذهب.

---

(١) مؤلفات الإمام محمد ج٦/٢٥٧.

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(٤/١٥)، أظن أنك لن تجد مسألة فرعية فيها قول محتمل مستساغ إلا وأحد الأئمة الأربعة أو أتباعهم المعتمدين في المذهب قال به.

(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج(٤/١٤).

وقال في مترلة شيخ الإسلام وابن القيم:

«الإمام ابن القيم وشيخه إماما حق من أهل السنة، وكتبهما من أعز الكتب، إلا أنَّا غير مقلدين لهم في كل مسألة، فإن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا نبينا ﷺ»(١).

وقال الشيخ حمد بن ناصر بن معمر في رسالة قيمة له في الاجتهاد والتقليد:

«وهذه الشبهة التي ألقاها الشيطان على كثير ممن يدعي العلم وصال بها أكثرهم، فظنوا النظر في الأدلة أمر صعب، لا يقدر عليه إلا المجتهد المطلق، وأن من نظر في الدليل، وخالف إمامه لمخالفته لذلك الدليل، فقد خرج عن التقليد ونسب نفسه للاجتهاد المطلق»(٢).

* * *

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج (١٥/٤).

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج (٥٤/٤).

الشبهة السادسة: فرية تنقص مقام النبي ﷺ

قالوا: ادعى النبوة[1]، وقالوا: كان يُضمر ذلك ولا يبديه، وقالوا: تنقص مقام الرسول ﷺ والأنبياء والأولياء، وأنكر شفاعة النبي ﷺ وشفاعة الصالحين، وحرَّم زيارة قبر النبي ﷺ، وقبور الأولياء والصالحين، وحرَّم الاحتفال بيوم ولادته، ونهى عن الصلاة عليه.

هذه الشبهات بعضُهم قال بها جميعًا، وبعضهم قال ببعضها، والباعث لهم جميعًا إنكار الشيخ سؤال الشفاعة من النبي ﷺ بعد موته، كأن يقول العبد موجهًا دعائه للنبي الكريم: يا رسول الله اشفع لي في كذا، واشتراطه للشفاعة أن يأذن الله تعالى للشافع أن يشفع ورضاه عن المشفوع له، وتحريمه لشد الرحل لزيارة القبر، وعده الاحتفال بمولده بدعة محدثة.

وهذه الدعوى أن الشيخ ادعى النبوة أو أضمرها، والتي قالها بعض مخالفيه، كذب محض، وجرأة على الكذب، واستخفاف بعقول الناس، وهي تنبئ وتدل على خفة دين وعقل صاحبها، وما جره إليها إلا هوان ما لديه من الأدلة والبراهين لنصرة مذهبه في تحسين الشرك باسم الوسيلة والشفاعة والكرامة، فعمد إلى تضليل الناس وتنفيرهم من مخالفه بمثل هذه الأكاذيب والأباطيل.

---

[1] قال ابن عفالق وهو من خصوم الشيخ: "والله لقد ادعى النبوة بلسان حاله، لا بلسان مقاله، بل زاد على دعوى النبوة". قال علوي حداد: "وكان يضمر دعوى النبوة".

والشيخ لم ينتقص الأنبياء والأولياء ولم ينكر شفاعة النبي والصالحين، ولم ينهَ عن الصلاة على النبي ﷺ، وحاشاه عن ذلك، فكل ذلك بهتان على الشيخ عظيم، فهو الذي بذل نفسه وحياته كلها محبة لرسول الله ﷺ، وما جاء به من الحق، فتعلم في الصغر ولا زال حياته يتعلم ويعلِّم، ويخطب ويؤلف، ويناصح ويأمر، ويجاهد ويناضل، وكان لرسوله متبعًا ومعظمًا وموقرًا ومعززًا، وكتبه شاهدة لذلك، وليس لخصومه إلا الدعاوى والظنون المجردة عن الدليل، وهو يثبت لرسولنا ﷺ الشفاعة العظيمة يوم القيامة، والتي يحمده عليها الخلائق حين يسأله الناس أن يشفع لهم عند ربهم، أن يقضي فيهم فيشفع وهذه خاصة به، ويثبت له ولغيره من الأنبياء والصالحين، كل حسب مقامه ودرجته، الشفاعة في العُصاة والمقصرين من أهل لا إله إلا الله، وليس للمشركين حظ في شفاعة الشافعين قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة المدثر :٤٨].

وأما منع الشيخ لسؤال النبي بعد موته الشفاعة، فلأن هذا السؤال في الحقيقة دعاء، والدعاء عبادة لا تصرف إلا لله، والميت لا يُطلب منه شيء، ولكن الحق أن يقول العبد، اللهم إني أسألك شفاعة نبيك، ونحو ذلك مما يكون النداء والدعاء فيه لله تعالى وحده، ويمنع الاعتقاد بأن الشفاعة عند الله تعالى مثل الشفاعة عند الملوك ونحوهم إذ قد يشفع عندهم من لا يأذنون له، ويُشفع لمن لا يرضونه، والله تعالى أعلى وأجل فلا يشفع أحد عنده إلا بعد إذنه، ولا يُشفع لأحد إلا بعد رضاه عنه. وشبهة تحريمه لزيارة قبر النبي ﷺ، وقبور الأولياء والصالحين، فتحريف لقوله، فما حرم الشيخ زيارة القبور، فضلاً عن قبور الأنبياء والصالحين، بل رغب فيها، تقليدًا واتباعًا لرسول الله ﷺ، ففي صحيح مسلم عن بريدة – رضي الله عنه –

قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»(١)، وفي رواية «فمن أراد أن يزور القبور فليزر، فإنها تذكر الآخرة». إذ فيها تذكير وعظة وسلام على الصالحين، ودعاء للأموات واستغفار لهم، ففي صحيح مسلم عن بريدة رضي الله عنه قال: «كَانَ إِذَا أَتَى عَلَى المَقَابِرِ قَالَ السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُمْ لاحِقُونَ أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ أَسْأَلُ الله الْعَافِيَةَ لَنَا وَلَكُمْ»(٢)، هذا الذي علم الرسول ﷺ أصحابه وأمته، السلام على الأموات والدعاء لهم بالعافية، والعبرة والعظة بما صاروا إليه، فقلب هؤلاء المبتدعة الأمر، فصاروا يدعونهم ويسألون، ويذبحون لهم وينذرون.

هذه الزيارة البدعية الشركية للقبور، هي التي أنكرها الشيخ محمد ونهى عنها؛ لأنها هي التي حرمها الله ورسوله، في الصحيح عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).

وفي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «لَعَنَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب الجنائز (١/٣٧٤)، وقال: صحيح، وأقره الذهبي.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، ح(٩٧٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، ح(٥٢٨).

الله الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١)، يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك لأُبرز قبره، غير أنه خشي أن يُتخذ مسجدًا.

وهذا الذي نهى عنه رسول الله ﷺ هو عين ما فعله هؤلاء المبتدعة في قبور الأولياء والصالحين، فقد جصصوا القبور ورفعوها وأسرجوها وبنوا عليها القباب والمساجد واتخذوها عيدًا، وهذا الفعل مشاهد محسوس لا يمكن أن ينكره خصوم الشيخ، فهل كان نهي الرسول ﷺ عن ذلك عبثًا وخطئًا، فهم يزعمون أن ما يفعل عندها جائز ومستحب وعمل صالح، ففيه تعظيمٌ ومحبةٌ لهؤلاء الصالحين، فيلزمهم القول أن نهي الرسول وتخوفه كان مخالفًا لما آل إليه الحال بعد أن بُنيت عليها القباب والمساجد، من حصول الفضل والأجر لزوارها وسائليها، وهذا قولٌ لا يليق بمسلمٍ معظمٍ لأمر ونهي نبيه ﷺ، بل الحق أن المصطفى ﷺ كان بأمته رؤوفًا رحيمًا، دلها على الخير ونهاها عن الشر، وكل ما نهى عنه شر وفعله شر ويؤول إلى شر، وكل ما أمر به خير وفعله خير ويؤول إلى خير، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النجم : ٣-٤].

وهو قد حذر أمته من تعظيم القبور والبناء عليها، سدًّا لباب الغلو في الصالحين ثم عبادتهم مع الله تعالى بصرف العبادات لهم، فالذي خالف منهم نهيه وتحذيره، وقع في شَرَكِ الشيطان فأضله وأغواه وأرداه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ح(١٣٢٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور، ح(٥٢٩).

وأما قول الشيخ محمد بتحريم شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء وغيرهم، فلـورود النص الصحيح الدال على التحريم، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ مَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى و مَسْجِدِي هَذَا»(١)، ورواه أبو داود بصيغة النهي «لا تَشُدُّوا الرِّحَالَ»(٢)، ورواه ابن راهوية في مسنده بصيغة الحصر إنما تشد الرحال، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب :٣٦]، أما ما استدل به الخصوم من استحباب السفر لزيارة قبر النبي ﷺ وساقوا لذلك بعض الأحاديث والآثار، فغالب ما ذكروه من الأحاديث باطل وموضوع، وقليله ضعيف، ومثلها لا يُحتج به إن خلت من المعارض لها، فكيف وقد عارضتها الأحاديث الصحاح؟ وقد صنف الإمام محمد بن أحمد بن عبد الهادي - رحمه الله تعالى - كتابه الصارم المنكي في الرد على السبكي وفيه تفصيل الرد على هذه الأحاديث الباطلة. والشيخ - رحمه الله تعالى - ما أراد هو ومن سبقه من أهل العلم بهذا التحريم إلا تعظيم أمر الرسول وامتثاله، فطاعته طاعة لله، وحقيقة المحبة الصادقة الطاعة والامتثال فيما تحب وتكره، فالرحال لا تُشد إلا للمساجد الثلاثة، وهذه المسألة؛ السفر لزيارة قبر النبي ﷺ يعدها الشيخ والمحققون من أهل العلم بدعة، ووسيلة إلى الشرك، وليست عنده ولا عند غيره بشرك.

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، ح(٨٢٧).

(٢) رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب: في إتيان المدينة، ح(٢٠٣٣).

وكذلك الاحتفال بالمولد يعده الشيخ بدعة وليس كفرًا وشركًا؛ لأن البدعة هي الحدث الجديد في الدين والمولد لم يفعله ﷺ، ولو كان خيرًا لدلنا عليه، ولم يفعله الصحابة ولا التابعون، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، فهو في نفسه بدعة، وغالب هذه الاحتفالات، كما هو مشاهد، يصاحبه غلو يصل إلى الشرك والكفر، ويصاحبه اختلاط الرجال بالنساء، وكثير من المنكرات والفساد. وهذا الاحتفال المبتدع بمولده ﷺ إنما ابتدعه صوفي جاهل بالموصل وتبعه ملك إربل، ثم روج له العبيديون والروافض حتى شاع وطم، فأنكره بعض أهل العلم، وحسنه بعضهم، وإذا كان الاختلاف فالرد والتحاكم للكتاب والسنة والإجماع.

وأقول: إن الشيطان وهو في سعيه لإغواء الناس أجمعين بزخارفه وتزيينه ومكره، قد رأى في المسلمين المحبة والتعظيم والتوقير لنبيها، فأراد صرفها عن ما تقتضيه هذه المحبة من المتابعة والطاعة والصبر والمصابرة على ذلك حتى الممات، والذي فيه الخير والفوز والنجاة، إلى أمر يموّه فيه على المسلمين ويخدعهم به أنهم قد حققوا المحبة والتعظيم لنبيهم، ويشبع به ما في نفوسهم من الحاجة إلى طاعة الرسول وتحقيق محبته، وينفس به ما في صدورهم من حرج التقصير والمعصية للرسول ﷺ، فزين لهم احتفالاً مبتدعًا في ليلةٍ واحدةٍ من السنة، ثم لم يرضَ العدو اللعين حتى ملأ هذا الاحتفال بالغلو الذي ربما وصل إلى الشرك، وبالفواحش والمنكرات.

والشيخ رحمه الله تعالى كالحنابلة والشافعية يرون الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير ركناً لا تتم الصلاة إلا به، فكيف ينهى عن الصلاة على النبي وهو يبطل صلاة من لم يصلي عليه، لكن الذي نهى عنه هو رفع الصوت بالصلاة على النبي

بعد الأذان على المنابر يوم الجمعة، وعد هذا بدعة لم تأتي به الشريعة، و لم يفعله السلف الصالح، والمنكر عليه هذا النهي عن البدعة مشابهٌ لمن أنكر على مَنْ نهى

عن الصلاة وقت النهي، واهمه أنه ينهى عن الصلاة.

* * *

يقول الشيخ محمد - رحمه الله - لما بلغته هذه الفرية، فرية انتقاص مقام رسول الله ﷺ: سبحانك هذا بهتان عظيم، ولكن قبلُ مَنْ بهتَ النبيَ ﷺ، أنه يسب عيسى بن مريم، ويسب الصالحين، تشابهت قلوبهم، وبهتوه أنه يزعم أن الملائكة وعيسى وعزير في النار، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ ﴾ [سورة الأنبياء :١٠١] .

ويقول الشيخ - رحمه الله -: «أجمع العلماء كلهم على كفر المختار مع إقامته شعائر الإسلام لـمَّا جنى على النبوة».

ويقول في نواقض الإسلام: «الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر. الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به

كفر. السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثواب الله أو عقابه»(١).

ويقول في باب حقوق النبي ﷺ ضمن كتاب فضل الإسلام: «وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل»، وقال رسول الله ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار، ولهما عنه مرفوعاً لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين»(٢).

ويقول ابنه الشيخ عبد الله: «والذي نعتقده أن رتبة نبينا محمد ﷺ أعلى مراتب المخلوقين على الإطلاق، وأنه حي في قبره حياة برزخية أبلغ من حياة الشهداء، المنصوص عليها في التتريل، إذ هو أفضل منهم بلا ريب، وأنه يسمع سلام المُسلم عليه، وتسن زيارته إلا أنه لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه، وإذا قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس، ومن أنفق نفيس أوقاته بالاشتغال بالصلاة عليه –

(١) مؤلفات الإمام محمد ج ٣٨٦/١.

(٢) مؤلفات الإمام محمد ٢٦٠/١ ــ ٢٦١.

عليه الصلاة والسلام – الواردة عنه فقد فاز بسعادة الدارين وكُفي همه وغمه كما جاء في الحديث عنه».(١)

يقول الشيخ السهسواني الهندي – رحمه الله –:

«فنحن معاشر أهل الحديث نعظم رسول الله ﷺ بكل تعظيم جاء في الكتاب والسنة الثابتة سواء كان ذلك التعظيم فعليًا أو قوليًا أو اعتقاديًا، والوارد في الكتاب العزيز والسنة المطهرة من ذلك الباب في غاية الكثرة، وأما أهل البدع فمعظم تعظيمهم تعظيم محدث كشد الرحال إلى قبر الرسول ﷺ والفرح بليلة ولادته، وقراءة المولد، والقيام عند ذكر ولادته وما ضاهاها»(٢).

* * *

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١٥٣/١.

(٢) صيانة الإنسان من وسوسة دحلان.

الشبهة السابعة: نجدٌ قرن الشيطان

أن نجدًا قرن الشيطان، والرسول ﷺ أشار إلى المشرق وقال: من هاهنا تخرج الفتن. فإذا كانت كذلك كان ما يخرج منها فتنة وضلالة.
وسبب الشبهة أن الرسول ﷺ، كما يزعمون، قد ذم نجدًا وأخبر أنها قرن الشيطان، ومنها تخرج الزلازل والفتن، وقد ظهر فيها من قبل مسيلمة الكذاب، والشيخ ظهر في نجد، فكان مذمومًا لذلك.
والجواب: أن هذا الدليل ليس دليلاً صحيحًا مقبولاً عند أهل العقل والإنصاف، فضلاً عن أهل العلم والسنة والقرآن، مع ما تضمنه من الكذب والتضليل، فرسول الله ﷺ بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وترك الأمة على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأذعنت الجزيرة العربية لدين الإسلام، توفاه ربه، فارتدت من بعده قبائل العرب في نجد واليمن وغيرها، ولم تختص نجد بالردة فقاتلهم الصحابة من المهاجرين والأنصار، حتى فاء الناس لدين الله، والذم يلحق المرتدين أين ما كانوا وفي أي زمن ظهروا، ولا تزر وازرة وزر أخرى. ثم كان من أهل نجد والجزيرة، تقودهم قريش والأنصار، البلاء الحسن والجهاد العظيم، حتى بلغوا الدين للمشرق والمغرب. ومن نجد تميم وهي قبيلة الشيخ – رحمه الله – وقد قال أبو هريرة – رضي الله عنه – في الحديث الصحيح: لا أزال أحب تميمًا لثلاث سمعتها من رسول الله قوله: لما جاءت صدقاتهم هذه صدقات قومي، وقوله: في الجارية التميمية أعتقها فإنها من ولد إسماعيل، وقوله: هم أشد أمتي على الدجال.

وأما استشهادهم بأن الفتن تخرج من المشرق، وأن نجدًا قرن الشيطان، فلا يفهم منه الإطلاق، ونفي خروج أي خير منه. ثم المشهور في تفسير العلماء للمشرق أنه العراق، قاله ابن حجر في الفتح والخطابي والداوودي وغيرهم من العلماء، ويشهد له الواقع الجغرافي للعراق فهو في الشرق من المدينة المنورة، وكذلك الواقع التاريخي وما حدث في العراق من الفتن قديمًا وحديثًا، ويؤكد ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عمر – رضي الله عنهما –: قال: يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ»(١) . فالفتنة تأتي كما أخبر ﷺ من المشرق لا محالة، ولكن ليس كل ما يأتي من المشرق فتنة، فاللفظ لا يفيده والواقع ينقضه، فقد ظهر في أهل العراق أعلام الإسلام، كالحسن البصري وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم، وكانت فيه عاصمتهم، ونرجو الله اليوم أن يُظهرَ فيهم من يكسر الكفر وأهله، وأن يُطَهِّرَ أرضه من رجس الكفار.

* * *

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن:

«فلو ذُمَّ نجدٌ بمسيلمة بعد زواله، وزوال من يصدقه، لذُمَّ اليمنُ بخروج الأسود العنسي ودعواه النبوة، وما ضر المدينة سُكنى اليهود فيها، وقد صارت مهاجر رسول الله ﷺ وأصحابه ومعقل الإسلام، وما ذُمت مكة بتكذيب أهلها للرسول ﷺ وشدة عداوتهم له، بل هي أحب أرض الله إليه»(١). وأقول بهذا الاستدلال المريض لا تسلم أرض ولا بلاد من الذم، فليس أرض إلا وظهر فيها كفر وفساد في زمن من الأزمان.

ويقول الشيخ المحدث الألباني - رحمه الله -: «يستفاد من مجموع طرق الحديث، أن المراد من نجد في رواية البخاري ليس هو الإقليم المعروف اليوم بهذا الاسم وإنما هو العراق، وبذلك فسره الإمام الخطابي والحافظ ابن حجر العسقلاني»(٢).

* * *

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ج٤/ ٢٦٥

(٢) أنظر دعاوى المناوئين للشيخ عبد العزيز العبد اللطيف ص (١٩١).

الشبهة الثامنة: الغلــو والتشــدد

قالوا هذه الدعوة تدعو إلى الغلو والتشدد في الدين، وهذه شبهة قديمة حديثــة، فالخصوم الأولون قالوا هذا التشدد دعاهم للتكفير والقتال، واليــوم المتــأخرون يقولون: غلوهم دعاهم للانغلاق وعدم الانفتاح على العــالم، وتقييــد الحريــة الشخصية للأفراد، وعدم إعطاء المرأة حريتها، وعدم التسامح مع الديانات والفرق المخالفة، وتطبيق القصاص والحدود، وإلزام الناس بشعائر الإسلام مــن صــلاة وصوم، ونحو ذلك من القول.

وسبب التهمة عند الأولين أن الشيخ وأتباعه دعوا الناس للتوحيد ونهــوهم عــن الشرك، وقاتلــوا من أصر على الشرك والردة بعد الــبلاغ والبيــان، وأمــروا بالمعروف ونهــوا عن المنكر فألزموا الناس بالصلاة والزكاة ونحوها، وعزروا من جاهر بالمنكرات وشرب الدخان.

وسببها عند المتأخرين أن البلاد السعودية اليوم تُحكَّمُ فيها الشريعة، فيقتل القاتل، وتقطع يد السارق، ويجلد الزاني، فالحكم فيها للشريعة وحدها، وليس لقــوانين الكفرة الأنجاس - التي فيها الظلم والفساد - مدخل ولا سلطان، والدولة والفرد فيها من ذكر وأنثى منضبطون في أمورهم بالضــوابط والقواعــد الشــرعية، في علاقاتهم بالآخرين، وفي أفعالهم وأقوالهم واعتقادهم، والحرية عندهم هي كمــال العبودية والطاعة لله ولرسوله، ويعتقدون ويوقنون أن الحرية التي يحددها العقــل والهوى والمتابعة للغرب هي عبودية للشيطان والنفس والهوى، ولست أزعم أنهــم كلهم على تُقى وصلاح، فهم كغيرهم من المسلمين فيهم ظالم لنفسه ومقتصــد

وسابق للخيرات، ولكن والحمد لله لا تزال هذه البلاد السنة والخير فيها ظـــاهر مستعلي، والبدعة والشر فيها مستترٌ مستخفٍ.

وما اتهم به خصوم الشيخ الدعوة من الغلو والتشدد، مردود مرفوض، إذ هو مبني على عدم تسامح الدعوة مع من أشرك بالله وجعل له الأنداد ومع المتهاونين بأوامر الله ونواهيه، فلا يأبهون لصلاة وصيام ولا ينتهون عن خمر وفساد، ودين الإسلام الذي فيه الخير والعدل، والتسامح الذي لا تضيع معه الحقوق ولا يسبب الفـــتن والضلال، دين خير كله وصلاح كله ومنهج متكامل، يراعي تحقيق المصالح ودرء المفاسد، وتقديم الكلية على الجزئية والمجموع على الفرد، ألا ترى الطبيب الحاذق يقطع الطرف الفاسد من الجسم حماية لبقيته من الفساد والهلاك، لا غلو فيـــه في تقييد المصالح الشخصية للأفراد، ولا إفراط في تضييع حقوق المجتمع والجماعات.

وهذا رسول الله ﷺ وهو قدوة الشيخ محمد في دعوته وقدوة كل الدعاة المصلحين وكل المسلمين، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ونصح وجادل، وجاهد وقاتـــل، وما كان قتاله للكفرة والظلمة غلوًّا وتشددًا، بل هو الرحمة والنور والخير لهـــذه القرى والأمم التي دخلت في دين الله أفواجًا، فنجت بذلك مـــن ضـــيق الـــدنيا وعذاب الآخرة.

أهل السنة والجماعة، والشيخ - رحمه الله - أحد أعلامها، أبعد الناس عن الغلـــو والتهاون والتفريط، فهم وسط في باب التكفير بين الخوارج الذين كفروا بالكبيرة وبين المرجئة الذين جعلوا الإيمان التصديق، فمن صدق وفعل ما فعل لا يخرج من الإسلام، فهو لم يعطل باب الردة الذي نص عليه فقهاء الإسلام، وأجمعوا فيه أن من أشرك بالله بأن جعل له ندًّا يدعوه ويصرف له شيئًا من العبادة فهـــو مرتـــد

يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، وكذلك من استهزأ بالدين ومن سجد للصنم وغير ذلك مما ذكروه وحكموا بالردة على فاعله، والله تعالى ذكر في كتابه العزيز الردة وحذر منها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ [سورة آل عمران: ١٠٠] ،والعجب أن ينكر الرافضة على الشيخ تكفير من تحقق شركه، وهم يكفرون ويلعنون خيار الأمة، الذين قال الله فيهم: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الفتح: ١٨]، وقال فيهم: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الفتح :٢٩].

وقال فيهم ﷺ: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ»(١) .

---

(١) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب: ما جاء في فضل من رأى النبي صلى الله عليه وصحبه، ح(٣٩٥٢).

أما تحريمهم للدخان فهذا من حسن نظرهم وصحة حسهم أن عرفوا مضاره ومفاسده، قبل تأكدها في هذا الزمن، وأنه سبب للمرض والموت وفساد الأخلاق ومفارقة الأخيار.

خصوم اليوم الذين هم من جلدتنا ويتكلمون بكلامنا قوم جمعوا بين الجهل بدينهم وعظمته وكماله وتاريخه وفتوحاته وعدله وعلومه، والهوى والرغبة في إطلاق شهواتهم وشبهاتهم دون رادع من دين وخُلق، فأخذوا من الغرب سوأته وتركوا حسنته، أخذوا منه الأفكار العلمانية والليبرالية، والفساد الأخلاقي في السلوك والمعاملات، وتعظيم الدنيا والأموال وتقديمها على الدين والمروءات، والتشبه في المظهر واللباس، وابتذال واستغلال المرأة لإفسادها والإفساد بها، وتركوا تطوره في الصناعات والابتكارات، وضبطه لقواعد العمل والإنتاج، ونحوها من الأمور. وهذه الحسنات عندهم، بعد تباعد المسلمين عن تعاليم وآداب دينهم، هي التي أوصلتهم لموضع الغلبة والتحكم على شعوب العالم، فكان من نتيجة علوهم في الأرض هذا الكفر والفساد والاستغلال والفقر والظلم والضلال، فَهُم حروبهم للدنيا ونهب الثروات واستغلال واستعباد الشعوب، وأمة الإسلام التي هي خير أمة أُخرجت للناس حربها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، من الكفر إلى الإيمان، من الظلم إلى العدل، من الفساد إلى الأخلاق.

هؤلاء الخصوم الدُعاة إلى الضلال والفساد، ليسوا كالعُصاة والفساق من المسلمين الذين يخالفون ويذنبون وقلوبهم تتألم من المعصية والذنب وتوقن أن ما نهى الله ورسوله عنه شر وفساد، فيستترون ويستحيون من فعلهم ويسألون الله التوبة

والإنابة، ولا يرضون فسقهم لأهلهم وأولادهم وأمتهم؛ لأن إيمانهم بـــالله ربًّـــا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً يمنعهم من ذلك الكفر والارتداد.

أما أولئك الدعاة إلى ضد القرآن والسنة، فهم في الحقيقة من حذرنا الله منهم في كتابه، فيظهرون للناس ما لا يبطنون، ويخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا نحن معكـــم ومـــنكم ونريـــد صلاحكم وإذا خلوا بينهم ومع شياطينهم راحوا يحيكون ويدبرون المكر والفساد، ويزينون ويزخرفون كلامهم فإذا سمعهم الغرُّ اغتر بهم وظن أنهم على شيء، وما هم والله على شيء فيه خير للعبد في آخرته ودنياه.

هم اليوم يسعون لنشر أفكارهم الفاسدة المخالفة للـــدين الحنيـــف بمســـميات وتعاريف جذابة مقبولة، بين الناس والدولة - مستغلين لذلك غلو النفر القليل في إصلاحهم لأخطاء الناس والدولة - فيضخمون ويعممون ويكذبون، وينســـبونها للدين ودعوة الإمام محمد، ويستعينون بالكفرة وإعلامهم ودعايـــاتهم ونفـــوذهم لتحقيق أهدافهم.

ولكن هيهات لهم ما يريدون، فالناس عندهم - ولله الحمد - من العلم ما يفرقون به بين الوقوع في المنهيات وبين استحلالها والدعوة إليها ومعارضة من يحاربها.

فالأولى: معصية يرجون من الله سترها والتوبة منها، ويعلمون أن المـــوت عليهـــا موت على إسلام ومعصية وصاحبها بين العفو والعقوبة ومصيره إلى الجنة.

والثانية: كفر وردة والموت عليها خلود في النار.

والدولة أعلم وأعقل من أن تنساق لمطالبهم وباطلهم؛ لأنها قامت لنصرة الـــدين، فكان لها من الله تعالى النصر والتمكين، ولها من المسلمين المحبة والولاء والطاعة،

فدولتها الأولى قامت لذلك، وكذلك الثانية، وهذه الدولة الثالثة جاءت الملك عبد العزيز – رحمه الله – الجيوش من الحاضرة والبادية مبايعة له لنصرة دين الله ورفع كلمة الإسلام وإحياء الخير والمعروف وإماتة الشر والمنكر، فكان هذا الخير الذي نعيشه اليوم ونحياه، وتعلم أيضًا أن طاعة الناس ومحبتهم لها مبنية على أصول شرعية دينية متينة، فما كانت الدولة لتفرط بهذا النصر والتأييد والتمكين والرخاء والأمن الذي أعطاها إياه الله لعلمها وإيمانها بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الرعد: ١١]، وما كانت لتفرط بهذه الطاعة والولاء والمحبة من الناس لها.

فنسأل للدولة والناس السلامة من كيد هؤلاء الأعداء المستخفين، الذين لا يرقبون في الدولة والمسلمين إلاًّ ولا ذمة، ويتربصون بهم الدوائر.

هؤلاء الخصوم المستترون يخوضون في الدين والعلم ويزخرفون القول، وهم أعداؤه وخصومه، ليروجوا بين المسلمين أفكارَ وآراءَ الزنادقة والمبتدعة، والتي من خلالها ينالون هدفهم الذين يريدون في بلاد المسلمين، وهو أن يفعل المرء ما يشاء دون رادع من دين ولا خُلق، فالكافر حر في كفره وإظهاره، والفاسق حر في فسقه وإظهاره. والمبتدع حرٌ في بدعته وإظهارها والدعوة إليها. ويجعلون من خالفهم وأنكر عليهم غالياً متشدداً.

والغلو في تعريف الرسول ﷺ والصحابة شيء، والغلو عند هؤلاء شيء آخر، فالغلو الذي نهى عنه الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟

كَثِيرًا ﴾ [سورة سورة المائدة : ٧٧] ، ونهى عنه المصطفى ﷺ بقوله: «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين واختلافهم على أنبيائهم»(١)، ونهى الثلاثة من الصحابة الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ فكأنهم تقالوها، فقال أحدهم: فأما أنا فأصلي الليل ولا أنام، وقال الآخر: وأنا أصوم النهار ولا أفطر، وقال الآخر: وأما أنا فأعتزل النساء، فلما سمع مقالتهم نهاهم، وقال: «وَلَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(٢). فالغلو هو: الزيادة في التعبد فوق ما شرعه وحده الشارع، ومنه تتولد البدع، فأعلى السنة في الصيام صيام يوم وإفطار يوم كما كان داود عليه السلام يفعله، والزيادة على هذا الحد غلو وتجاوز، ومحبة الرسول ﷺ طاعته فيما أمر واجتناب ما عنه نهى وزجر، وتوقيره وتعزيره ومحبته فوق محبة النفس والمال والوالد والولد، والغلو في المحبة والتعظيم عبادته مع الله، كما فعل النصارى مع المسيح عليه السلام، وهو منهم ومن فعلهم بريء، بدعائه وسؤاله والنذر له والحلف به ونحو ذلك، من الأمور التي نهى هو عنها وحذر منها، ففي الصحيحين عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»(٣).

(١) رواه ابن ماجة، باب قدر حصى الرمي، ح(٣٠٢٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح، ح(٤٧٧٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)، ح(٣٢٦١).

وروى النسائي بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والغلو في الــدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»(١)، ولأحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَجَعَلْتَنِي وَاللهِ عَدْلاً بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(٢).

وخصوم الدعوة اليوم من العلمانيين والتغريبين يريدون بالغلو في الدين التمســك والامتثال بأوامر الله ونواهيه، دون تحكيمٍ للعقل والهوى فيها، فكل أمر مــن الله ورسوله يخالف هواهم امتثاله وفعله غلو وتنطع، وكل نهي من الله ورسوله يخالف شهواتهم اجتنابه غلو وتطرف، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غلو وتدخل في شؤون الآخرين، فالآمر والناهي امتثالاً لأمر الله تعالى بقوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤] ، وبقوله ذامًّا للقــوم الــذين تركــوه وأهملــوه: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [ســورة المائــدة: ٧٩] ، ولقولــه ﷺ فيمــا رواه أبو داوود والترمذي: «لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ

(١) رواه النسائي ح(٣٠٥٧)، ورواه ابن ماجة، باب قدر حصى الرمي، ح(٣٠٢٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده ح(١٧٤٢).

بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»(١)، وهذا لفظ أبو داوود، فالممتثل لهذه الأوامر من الشارع يريد مرضاة ربه، وصلاح أمته، عندهم متشدد غـالٍ في الدين، والمتبع لسنة خير الناس في هيئته ولباسه ومأكله ومشربه ومركبه ومترله وسلامه وكلامه متشدد متزمت، والمرأة المؤمنة العفيفة المطيعة لأمر ربها بالستر، والابتعاد عن التبرج والسفور ومخالطة الأجانب غالية متشددة أو مظلومة مقهورة، فالحقيقة التي يستخفون بها عن المسلمين، أنهم يرون في دين الله وسنة رسوله غلوًّا وتشددًا، ولهم بعقولهم أن يختاروا منها ما يناسب أهواءهم ويوافق شهواتهم.

خصوم اليوم يزخرفون باطلهم، ويزينون ما يضمرونه من الإفساد بكلام يخادعون به الذين آمنوا، فيدعون إلى التسامح والفهم والقبول بما يسمونه الآخر المخالف.

فمن هذا الآخر المخالف، وما هذا القبول والفهم الذي يريدونه له.

بيِّنٌ للمسلم الفطن أن الآخر المخالف هو الكافر والمبتدع والفاسق، والفهم والقبول له هو رضا المسلمين له أن يجاهر قولاً وفعلاً بباطله بين المسلمين. فلا غضب لله تعالى ولرسوله ﷺ أن تنتهك حُرمات الدين، ولا خوف على المسلمين من الغواية والضلال، ولا موالاة ولا معاداة.

وهذا هدم للدين وغرق للسفينة وإبطال للمنكر أن يكون منكراً، نعوذ بالله ممّا يبطنونه ويمكرونه.

وهم مع هذه الدعاوى التي يتظاهرون بها من أشد الناس تعصبًا لآرائهم ومذاهبهم ولو صار لهم التمكين - لا مكن الله لهم - لأذاقوا مخالفيهم الهوان والعذاب، كما فعله المعتزلة بسلطان المأمون، وكما يفعلونه اليوم في كثير من بلاد الإسلام من

(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ح(٤٣٣٧).

منع المصلين والتشديد عليهم، والتضييق على المؤمنات العفيفات المتحجبات في أعمالهن ودراساتهن.

ولا يصح بالأمس نسبة التصرفات الفردية لبعض الأفراد الشواذ في إنكارهم لبعض المنكرات بشكل تجاوزوا فيه الحد الشرعي إلى الشيخ ودعوة الشيخ، وفي بعض رسائل الشيخ وتلاميذه تجد فيها النصيحة لأمثال هؤلاء بالتزام المنهج الشرعي في الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكذلك اليوم لا يصح نسبة من غلا في دينه، فكفَّر من لا يستحق الكفر، وأهدر دماء المسلمين أو المعاهدين والمستأمنين إلى دعوة الشيخ، والشيخ على خلاف ذلك بل ضده، فهو بريء من تكفيرٍ لم يجمع عليه المسلمون، أو تكفير بالظن والتخرص، وهؤلاء الغلاة اليوم وبالأمس، يستدلون لغلوهم بآيات القرآن فيضعونها في غير مواضعها، وبالسنة فيحملونها على غير محملها، وبأقوال كثير من العلماء المتقدمين والمتأخرين، أفيصح أن يُقال القرآن والسنة وأهل العلم يدعون لذلك؟ لا يقول ذلك إلا من أعمى الله بصيرته، وكان له هوى سيَّره في تحريف النصوص والأقوال من معانيها الظاهرة إلى مقاصده ومشتهياته.

ففي أفضل القرون وبين سيد الخلق أجمعين أخطأ بعض الصحابة مجتهدين، فأسامة – رضي الله عنه – قتل من لاذ بالشجرة وقال لا إله إلا الله فأنكر رسول الله ﷺ عليه ما فعل، ورأى امرأة مقتوله في أحد غزواته فقال منكراً: ما كانت هذه لتقاتل، وبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد – رضي الله عنه – إلى بني جذيمة يدعوهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا فجعل خالد يأسر

ويقتل فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ رفع يديه وقال اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد مرتين.

فمن نسب هذه الأخطاء ونحوها إلى دين الله وإلى رسوله ﷺ فهو ظالم جاهل !

* * *

الشبهة التاسعة: التشبيه والتجسيم

قال خصوم الدعوة: الوهابية شبهوا الله ومثلوه بخلقه، فجعلوا لله يدًا ووجهًا ورجلاً، وجعلوه في جهة العلو مستويًا على عرشه، وقالوا يغضب ويفرح ويترل، وأجروا الآيات والأحاديث التي جاءت في الصفات على ظاهرها ولم يؤولوها عن معناها الظاهر، وذلك تشبيه وتجسيم لله تعالى، وهو كفر بإجماع المسلمين.

هذا مجمل قول خصوم الشيخ في هذه المسألة، وسببه أن الإمام محمد - رحمه الله تعالى - أثبت لله تعالى ما أثبته الله جل جلاله لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العُلا في كتابه العزيز وفي سنة رسوله ﷺ. وهذه المسألة الخصومة فيها قديمة بين أهل السنة والجماعة ومن ضل فيها من فرق المتكلمين، وخصوم الشيخ قد صدقوا حين نسبوا للشيخ إثباته لصفات الله تعالى التي صح النص من الشارع فيها، وكذبوا عليه حين جعلوا من هذا الإثبات تجسيمًا وتشبيهًا وتمثيلاً بصفات المخلوقين، وهي التهمة القديمة نفسها التي رمى بها من أنكر الصفات أهل السنة والجماعة، فسموهم مجسمة ومشبهة.

والحق أن أهل السنة والجماعة وهم يثبتون لله الأسماء الحسنى والصفات العُلا، كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ ينفون أن يكون هذا الإثبات مستلزم للتشبيه والتمثيل للخالق بالمخلوق، فالله تعالى له الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فالله تعالى يسمع وله سمع يليق به قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [سورة المجادلة :١]

وللمخلوق سمع قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة المؤمنون :٧٨]، وليس سمع الإله الخالق الكامل كسمع العبد المخلوق الناقص.

وله تعالى يدان كما أخبر في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وكلتا يدي الرحمن يمين، شرف آدم فخلقه بيديه قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [سورة ص: ٧٥] ، وللمخلوق يدٌ قال تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٨] ، وليست يد الجبار الذي لا تدركه الأبصار، ولا تتوهمه الأفكار كيد المخلوق من ماء مهين.

والسلف وكل من يقرأ القرآن وهو خال الذهن من شبهات المتكلمين، يفهم منه أن الله ليس كمثله شيء، فله سمع يليق بجلاله وعظمته فيه الكمال المطلق، لا نعرف كيفية هذا السمع، ولا يليق السؤال عن كيفيته، وله يدان كما قال تعالى، تليقان بذاته ليست مثل يد المخلوق، لا نعرف ولا نسأل عن كيفيتها، وكذلك نثبت له استواء على عرشه، يليق به لا نعرف ولا نسأل عن كيفيته، وهذا الفهم لصفات الحق تبارك وتعالى هو ما كان عليه الصحابة والسلف.

وحين سُئل الإمام مالك، مع بداية ظهور هذه الشبهات والضلالات، عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ أطرق وعلاه العرق لشناعة السؤال وجرأة صاحبه على الله، ثم قال كلمة صارت قاعدة يُردَّ بها على من أنكر أو شبه الصفات، قال رحمه الله:

«الاستواء معلوم»، أي له معنى تعرفه العرب من كلامها وهو العلو والارتفاع والاستقرار والصعود. «والكيف مجهول»، أي كيفية هذا الاستواء مجهولة فكما لا نعرف كيفية ذات الله تعالى فكذلك لا نعرف كيفية استوائه ولا أي صفة من صفاته. «والإيمان به واجب»، أي التصديق واليقين أن الله تعالى قد استوى على عرشه واجب على المسلم وهو فرع من تصديق القرآن وتصديق الرسول ﷺ. «والسؤال عنه بدعة»، أي السؤال عن كيفية الصفة بدعة؛ لأن الصحابة والسلف آمنوا وصدقوا بالصفات وعرفوا منها معنى يليق بالله تعالى فأفادهم ذلك معرفة بربهم وتعظيمًا وإجلالاً ومحبة وخوفًا، ولم يسألوا عن كيفية الصفة، إذ هذا السؤال من نظير قول اليهود المغضوب عليهم لموسى عليه السلام: أرنا ربك.

وما تكلم أهل العلم في هذه المسائل إلا لما خاض فيها أهل الباطل بغير حق وحرفوا وضللوا فانبروا لهم بالرد والتبيين. قال الإمامان أحمد بن حنبل وابن المبارك: كنا نرى السكوت عن هذا قبل أن يخوض فيه هؤلاء، فلما أظهروه لم نجد بُدًّا من مخالفتهم والرد عليهم.

وآمنوا أن الله لا يماثله ويشابهه شيء، فأثبتوا الصفة ونفوا أن تكون مماثلة لصفات غيره من المخلوقات، وهذا هو تصديق قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

والكلام في الصفات إنما ابْتُدِعَ وقت الدولة الأموية، وكان أوائل من دعا إليه الجعد بن درهم، قاصدًا إضلال المسلمين، وهو الأرجح، أو جهلاً وتأثرًا بديانات البلاد المفتوحة كفارس والروم، فتكلم في القدر وفي صفات الرحمن بكلام فاسد مبتدع، وكان يستخفي ببدعته خوفًا من السيف، ويدعو إليها، فتبعه من كُتب عليه الشقاوة، ممن يُصغي للمشتبهات ويعرض عن المحكمات، ويرضى بقول الخلف ويهجر قول السلف.

وكان هذا القول أول ظهوره مرفوضًا مردودًا من عامة المسلمين وخاصتهم، ويرونه بدعة وضلالة وتنقصًا للحق تبارك وتعالى، لذا قتله لأجله أمير العراق خالد القسري بأمر هشام بن عبد الملك، وذلك بعد أن خطب الناس يوم الأضحى فقال في خطبته: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقوله الجعد علوًّا كبيرًا، ثم نزل من المنبر وذبحه، فحمد الناس لخالد ما صنع.

يقول ابن القيم – رحمه الله – في نونيته:

ولأجلِ ذَا ضَحى بجعدٍ خالدُ القسري يومَ ذبائحِ القربـانِ
إذ قالَ إبراهيمُ ليسَ خليلـهُ لا و لا مُـوسى الكليمُ الـدانِ
شكرَ الضحيةَ كلُ صاحبِ سنةٍ للهِ دركَ مِنْ أخـي قُربـانِ

وتلقف هذه البدعة الجهم بن صفوان، فزخرفها وأسس لها ودعا إليها، فخدع بها كثيرًا من أهل الأهواء والجهل، وكان يقول بالجبر ونفي الأسماء والصفات حتى جعل معبوده العدم، فكان كلامه ومذهبه زندقة وكفرا.

فكفرَّ علماءُ المسلمين أصحابَ هذه المقالة الخبيثة، يقول عنه الذهبي في الميزان: «الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان التابعين، وما علمته روى شيئًا، ولكنه زرع شرًّا كثيرًا»، وكان الجهم قد ترك الصلاة أربعين يومًا شكًّا في ربه حين ناظره قوم من السمنية، وقد قتله عامل خراسان لبني أمية نصر بن سيار سنة ثمان وعشرين بعد المائة.

وقد ظل أتباعهم مستخفين حتى تولى المأمون الخلافة وقرب علماء المعتزلة كبشر المريسي وأحمد بن أبي دؤاد فزينوا له القول بخلق القرآن تنزيهًا لله بزعمهم من الكلام، وكان المأمون مغرمًا بالفلسفة وعلم الكلام والجدل والنقاش فكان يناظر ويجادل العلماء لنصر هذه البدعة دون إلزام وقصر عليها، فما زالوا به حتى زينوا له فرضها على الناس وإلزام العلماء بهذا القول بسلطان القوة والسيف، فبدأت الفتنة آخر سنة من حكم المأمون سنة ثمانية عشر ومائتين من الهجرة.

قال ابن الجوزي في مناقب أحمد: «لم يزل الناس على قانون السلف وقولهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق، حتى نبغت المعتزلة فقالت بخلق القرآن، وكانت تستر

ذلك، وكان القانون محفوظًا زمن الرشيد، ثم روى بسنده عن محمد بن نوح قال: سمعت هارون أمير المؤمنين يقول بلغني أن بشرًا المريسي زعم أن القرآن مخلوق، ولله عليَّ إن أظفرني به لأقتلنه قِتلة ما قتلتها أحدًا قط، قال أحمد: كان بشر متواريًا أيام هارون نحوًا من عشرين سنة، حتى مات هارون، فظهر ودعا إلى الضلالة وكان من المحنة ما كان»(١).

فكانوا يفتنون القضاة والفقهاء والمحدثين وكافة العلماء بسؤالهم عمَّا يقولون في القرآن ويلزمونهم بالقول بأنه مخلوق. فأجاب أكثرهم تقية خوفًا من القتل، ووقف الإمام أحمد بن حنبل، إمام أهل السنة والجماعة والحديث في زمانه موقفه الخالد، ولاقى من التعذيب والسجن والمنع عن التحديث والتعليم ما لاقاه.

واستمرت الفتنة زمن المأمون ثم المعتصم ثم الواثق، حتى جاء زمن المتوكل فأوقف الفتنة ونصر السنة.

وقد كان الواثق قد ترك امتحان الناس بسبب مناظرة جرت بين يديه حين أُدخل شيخ(٢) مخضوب مقيد فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لا سلم الله عليك، فقال: يا أمير المؤمنين بئس ما أدبك مؤدبك، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ ﴾ [سورة النساء: ٨٦] ، والله ما حييتني بها، ولا بأحسن منها.

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي باختصار ص (٤١٦).

(٢) قال ابن الجوزي في المناقب: الشيخ هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن إسحاق الأذرمي.

فقال ابن أبي دؤاد: يا شيخ ما تقول في القرآن؟ فقال: لم تنصفني ولِّني السؤال. فقال: سل، فقال الشيخ: ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. فقال الشيخ: هذا شيء علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أم شيء لم يعلموه؟ فقال: شيء لم يعلموه. فقال الشيخ: سبحان الله! شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي، وعلمته أنت، فخجل ابن أبي دؤاد. فقال: أقلني، ثم قال: القرآن مخلوق وعلمه النبي ﷺ والخلفاء الراشدون ولم يدعوا الناس إليه. فقال الشيخ: علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يدعوا الناس إليه، أفلا وسعك ما وسعهم؟ فدخل الواثق خلوته واستلقى على قفاه ووضع رجله على الأخرى، وردد قول الشيخ: سبحان الله شيء لم يعلمه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي وعلمته أنت، وقوله: أفلا وسعك ما وسعهم؟ ثم قال الواثق: لا وسع الله على من لم يتسع له ما وَسِعَ رسوله ﷺ وخلفاءه الراشدين، وسقط ابن أبي دؤاد من عينه، وأكرم الشيخ وأعاده لأهله وترك امتحان الناس.

وقيل إن الواثق تاب من القول بخلق القرآن قبل موته، ولم تنكشف هذه المحنة بالكلية إلا في زمن المتوكل إذ أمات البدعة وكشف الغمة وأحيا السنة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين من الهجرة.

فكانت الحجة التي أفحمت الخصم وردت الواثق للصواب أن هذا الأمر مبتدع، لم يقل به رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون والسلف الصالح، فهم كانوا يقرؤون القرآن وهو مليء بالآيات التي تعرف بالله وأسمائه وصفاته بلغة عربية فصيحة بينة، ويحفظون سنة النبي ﷺ وفيها وصف الله تعالى، كحديث النزول وحديث الغضب

والضحك وغيرها من الأحاديث، فيفهمون منها ما تعنيه دون التشبيه بصفات المخلوقين ومع التعظيم والاعتقاد أنها على وجه الكمال المطلق، ولو كان معناها بخلاف ظاهرها لبينوه للناس وما تركوهم في هذا الأمر العظيم دون تنبيه وتبيين، وهم الذين تكلموا في تفاصيل العلوم ودقائق المسائل فبينوها وأجلوها للمسلمين.

بعد انجلاء المحنة كانت أفكار المعتزلة وآراؤهم قد تشبع بها تلاميذ تتلمذوا عليها وجذبهم ما فيها من التفكير العقلي الفلسفي والجدل والمناظرة والنقاش، وهذا يستهوي بعض الناس ويجدون فيه متعة عقلية ورياضة ذهنية، يتلذذون بها تلذذ العباد بالصلاة والقرآن، فكان من أبرز هؤلاء التلاميذ أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي، وكل منهم كون مدرسة خاصة به مخالفة في بعض مسائلها ما كان عليه المعتزلة محاولة بذلك الاقتراب من مذهب أهل الحديث والسنة والجماعة.

فالأشعري – رحمه الله تعالى – هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق، من ولد الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ولد سنة ستين ومائتين من الهجرة، أخذ علم الكلام عن زوج أمه أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة، وتبحر في علم الكلام فلم يجد فيه الشفاء للمشكلة والسؤال.

ذكر ابن خلكان أن الأشعري سأل أستاذه أبا علي الجبائي عن ثلاثة أخوة؛ أحدهم مؤمنٌ تقي، والثاني كافرٌ شقي، والثالث كان صغيرًا، فماتوا فكيف حالهم؟ فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدركات، وأما الصغير فمن أهل السلامة.

فقال الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟ فقال الجبائي: لا؛ لأنه يقال له أخوك إنما وصل إلى هذه الدرجات بطاعاته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات.

فقال الأشعري: فإن قال ذلك التقصير ليس مني فإنك ما أبقيتني، فقال الجبائي: يقول البارئ جل وعلا كنت أعلم لو بقيت لعصيت وصرت مستحقًّا للعذاب الأليم فراعيت مصلحتك.

فقال الأشعري: فلو قال الأخ الكبير يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت مصلحته و لم تراعها لي، فانقطع الجبائي، وهذا الانقطاع من الجبائي سببه فساد اعتقادهم وقولهم في القدر وأفعال العباد.

لبث الأشعري على اعتقاد المعتزلة أربعين سنة، كما قاله ابن عساكر، ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يومًا، ثم خرج إلى الجامع بالبصرة فصعد المنبر بعد صلاة الجمعة، وقال: «معاشر الناس إني تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، و لم يترجح عندي حق على باطل، ولا باطل على حق، فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس، وصار حربًا على أهل البدع من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج، فألف كتاب «اللمع»، وكتاب «كشف الأسرار وهتك الأستار» فضح فيه المعتزلة وبين عوارها، قال الخطيب البغدادي: وكانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم، وكتاب «مقالات الإسلاميّن» ذكر فيه الاختلاف والمقالات في الأصول والعقائد، وكتاب «الإبانة

عن أصول الديانة»، وهو من آخر ما كتب، وفيه براءته من النفي والتعطيل، وموافقته لأهل السنة والحديث في الإثبات للصفات على الوجه اللائق دون كيف وتمثيل، وهو كتابه بلا ريب نسبه إليه ابن عساكر، والحافظ البيهقي الشافعي، والحافظ الذهبي، وابن فرحون المالكي، وغيرهم من الأعلام»(١).

قال في أول كتاب الإبانة: «قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه السلام، وما رُوِيَ عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال، وأبان فيه معتقده في الصفات الذاتية والفعلية، فأثبت لله ما أثبت لنفسه من الوجه واليد والعين والاستواء والنزول والرؤية يوم القيامة دون كيف وتمثيل، وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وأن الله خلق العباد وأفعالهم فلا يكون في ملكه ما لا يشاء، ولهم فعل وكسب ومشيئة عليها يحاسبون، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [سورة المدثر: ٣٨]، كما ثبت ذلك بالنصوص من القرآن والسنة الصحيحة.

هذه هي عقيدة الإمام الأشعري - رحمه الله تعالى - التي مات عليها، والعقيدة المنسوبة إليه اليوم هي عقيدة انسلخ هو عنها ورفضها، وبقي عليها بعض أتباعه

(١) انظر مقدمة الإبانة عن أصول الديانة بتحقيق الشيخ بشير محمد عيون، للشيخ الفاضل حماد الأنصاري رحمه الله.

ومن تبعهم مثل: ابن فورك والباقلاني والجويني والغزالي والرازي وغيرهم، وهم مضطربون مختلفون، وهذا بين ظاهر في كتبهم، لكن من سماتهم إثبات الصفات السمعية العقلية السبع، وسموها العقلية؛ لأن العقل دل عليها، وهي الحياة والقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام، وهم في إثباتهم لصفة الكلام بقولهم هو معنى واحد قائم بذات الله تعالى، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عُبِّرَ عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عُبِّرَ عنه بالعبرانية كان توراة، هم بهذا القول في القرآن أقرب إلى قول المعتزلة من قول أهل السنة والحديث، ثم نفوا ما سواها من الصفات؛ لأنها تستلزم بزعمهم تشبيه الخالق بالمخلوق، فقسم أوَّل، وقسم آخر فوَّض، وأثبتوا رؤية المؤمنين لربهم في الجنة إثباتًا شابه نقص وتشويه؛ لتأثير التزامات ظنوها عقلية، التزموها في جدلهم مع المعتزلة، كنفي الجهة والعلو؛ لأنها بزعمهم تستلزم أن الله تعالى عما ظنوه محدود في جهة، وكذلك قالوا الإيمان التصديق، ولا ينقص ولا يزيد. وما جرهم لهذه الآراء إلا النظر العقلي في مسائل لا مجال للعقل فيها، وإنما العقل الصحيح فيها التسليم للنص والتصديق به، كما دل دون زيادة ولا نقص، فالله تعالى أثبت لنفسه صفات، فنثبتها له تعالى، ونفى أن يكون شيء مثله، فننفي أن يكون أحد مثله، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى ١١] ، وكما أثبتنا وسلمنا أن له ذاتًا لا تشبه ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته نثبت ونسلم أن له صفاتٍ كما جاء في القرآن والسنة الصحيحة، دون تمثيل وتشبيه بذوات المخلوقين.

وأما الماتريدي عفا الله تعالى عنه، فهو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، نسبة إلى ماتريد قرية بقرب سمرقند، الحنفي في الفروع، توفي سنة ثلاثة

وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، ومذهبهم في الصفات قريب من مذهب الأشاعرة فيثبتون لله تعالى القدرة والعلم والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والتكوين، وكذلك يخالفون في مسائل أصولية أخرى مثل تعريف الإيمان وأفعال العباد وغيرها. وهم في إثباتهم لصفة الكلام بقولهم كلام الله غير مخلوق وهو المعنى القديم القائم بذاته، وما سمعه موسى هو عبارة أو حكاية كلام الله تعالى، هو أقرب إلى قول المعتزلة من قول أهل السنة والحديث، الذين يثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه من صفة الكلام، فيقولون كلام الله تعالى قديم النوع، حادث الآحاد، وأن الله يتكلم إذا شاء متى شاء بصوت وحرف دون كيف وتمثيل بكلام المخلوقين، وأنه كلم موسى عليه السلام، وما سمعه موسى هو كلام الله تعالى، لا عبارة عنه ولا حروفًا وأصواتًا خلقها الله دالة على كلامه.

وقول الأشاعرة والماتريدية في كلام الله تعالى والقرآن مأخوذ من قول ابن كلاب الذي أراد أن يرد على المعتزلة الذين يقولون بخلق القرآن ملتزمًا في رده عليهم بالتزامات باطلة ابتدعها الفلاسفة والمعتزلة فأخطأ الصواب، وقال بخلاف ما دل عليه القرآن والسنة، وكان عليه سلف الأمة.

وقد ساد هذان المذهبان وغلبا في كثير من بلاد المسلمين، في القرن الرابع الهجري وما تلاه، كما غلبت كثير من البدع والخرافات والشرك والضلالات، فوقع الضلال في توحيد الألوهية والعبادة، وفي توحيد الأسماء والصفات، الأول سببه الرافضة والصوفية الجهال بسبب غلوهم في الصالحين، والثاني سببه أهل الكلام والفلسفة وعلوم اليونان بسبب غلوهم في العقل وتحكيمهم له فيما لا سبيل له إليه، حتى صار الإسلام غريبًا كما بدأ، وانتحل قول الأشاعرة والماتريدية بعض

من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي، وقليل من أصحاب أحمد، وتسموا بأهل السنة والجماعة، وسموا من تبع السلف من الفقهاء والمحدثين، فأثبت دون كيف، مشبهة ومجسمة وحشوية وحنابلة، وقالوا بكفرهم ونفروا الناس منهم.

وقد تصدى لهذه البدع الكلامية والشركية كثير من أهل العلم، منهم أبو عيسى الترمذي والأثرم، وأبو بكر الخلال والدارمي، واللالكائي وأبو جعفر الطبري، وأبو بكر ابن خزيمة وأبو العباس بن سُريج والطحاوي وابن بطة وحافظ المغرب ابن عبد البر والقرطبي، وابن كثير والبغوي وغيرهم كثير، وقد ألفوا لردها وإبطالها الرسائل والمؤلفات.

ومن أشهر من تصدى لهذه المذاهب المبتدعة، مع تفاوت درجات هذه البدع، شيخ الإسلام ابن تيمية فألف الواسطية والتدمرية والحموية، والرد على الجهمية، وغيرها من الرسائل، وملأها بالحجج والبراهين من القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، وبالنظر والعقل الصحيح السليم، فكان من القواعد التي أسسها للرد على من ضل في باب الأسماء والصفات، أن القول في الصفات كالقول في الذات، فكما نثبت الذات ونجهل كيفيتها، فكذلك الصفات نثبتها ونجهل كيفيتها، إذ معرفتها فرع عن معرفة الذات، والثانية وفيها الرد على من أثبت البعض ونفى البعض بعقله ورأيه كالأشاعرة والماتريدية أن القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، فكما أثبتم لله سمعًا يليق بجلاله فكذلك نثبت له كلامًا ويدًا ووجهًا ورضًا وغضبًا يليق بجلاله.

فأحيت كتاباته مذهب السلف والأئمة الأربعة، وكثر ولله الحمد رجوع كثير من المسلمين إلى العقيدة الصحيحة في هذه المسألة العظيمة، نتيجة لضعف التعصب

للمذاهب وأقوال المتأخرين والعناية بالحديث النبوي الشريف والعودة إليـــه وإلى شروح أهل الحديث، وأقوال أهل العلم المتقدمين.

وهذه البدعة والاختلاف في الصفات هي خلاف ما عليه الأئمة الأربعة، فـــأبو حنيفة في «الفقه الأكبر» يقول: «وما ذكر الله في القرآن من ذكر الوجه واليـــد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال أن يده قدرته ونعمته؛ لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال ولكن يده صفته بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف»، وقد ألف الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي المصري الحنفي كتابه «العقيدة الطحاوية» وقرر أنه اعتقاد أهل السنة والجماعـــة وأبي حنيفة وصاحبيه.

والإمام مالك كلمته المشهورة قاعدة لأهل السنة والجماعة في الرد علـــى مـــن خالفهم، فسبحان من ألهمه ووفقه، فقوله الاستواء معلوم رد علـــى المفوضـــة، والكيف مجهول رد على المشبهة والمجسمة، والإيمان به واجب رد علـــى النفـــاة والمعطلة، والسؤال عنه بدعة، رد على من أنشأ هذه المقالة المذمومـــة وابتـــدأها ونشرها وخاض فيها.

والإمام الشافعي يقول: لله أسماء وصفات لا يسع أحد ردها ومن خـــالف بعـــد ثبوت الحجة كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، فنثبت هذه الصـــفات وننفي عنه التشبيه. وقال أيضًا: السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا أهل الحديث الذين رأيتهم عليها، فأحلف عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهما، الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف يشاء، وأن الله يترل إلى السماء الدنيا كيف يشاء.

والإمام أحمد هو من عاصر ذروتها وسلطانها، فكان سدًّا منيعًا بذل نفسه لردها وإبطالها.

يقول ابن الجوزي في مناقب أحمد: «يقول أبو جعفر الأنباري: لما حُمل أحمد بن حنبل إلى المأمون أُخبرت فعبرت الفرات فإذا هو جالس في الخان فسلمت عليه، فقال يا أبا جعفر تعنيت، فقلت: ليس هذا عناء، وقلت يا هذا: أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق كثير من خلق الله، وإن أنت لم تُجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، ولابد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء، فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله»(١).

ومن نافلة القول أن نبين مذهب الروافض في هذه المسألة، فمذهب متقدميهم التمثيل والتجسيم ومتأخريهم النفي والتعطيل، وقد كفر المتقدمون منهم من نفى الصفات، وكفر المتأخرون منهم من مثل الصفات.

يقول الأشعري في مقالات الإسلاميين: «واختلفت الروافض أصحاب الإمامة في التجسيم وهم ست فرق، فالفرقة الأولى الهشامية أصحاب هشام بن الحكم الرافضي يزعمون أن معبودهم جسم وله نهاية وحد - من كلام التجسيم والتمثيل الساقط الخبيث حتى عدّ خمسة فرق كلها تقول بالتجسيم - ثم قال: والفرقة السادسة من الرافضة يزعمون أن ربهم ليس بجسم ولا بصورة ولا يشبه الأشياء ولا يتحرك ولا يسكن ولا يماس، وقالوا في التوحيد - الأسماء

(١) مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي، ص٤٢٣.

والصفات - بقول المعتزلة والخوارج، وهؤلاء قوم من متأخريهم فأما أوائلهم فإنهم كانوا يقولون ما حكينا عنهم من التشبيه»(١).

فمذهبهم اليوم مذهب المعتزلة في نفي الصفات كلها عن الله تعالى، ويقولون في القرآن بكلام بشر المريسي وابن أبي دؤاد، فيقولون القرآن مخلوق، ويقولون الرؤية لله تعالى يوم القيامة منفية، والعباد يخلقون أفعالهم، وكتبهم وأئمتهم يتبرؤون ويكفرون من خالفهم من أهل السنة والحديث والأشاعرة والماتريدية.

وبينهم وبين الأشاعرة جولات وصولات في هذه المسائل الكلامية التي تمس ما يعتقده المسلم لربه من الأسماء الحسنى والصفات العُلا، ومسائل القدر، والتحسين والتقبيح العقلي ونحوها، وبلاء الأشاعرة مشهور معروف في ردودهم عليهم وعلى المعتزلة والزنادقة.

ثم إن مسائل الخلاف بين أهل السنة والجماعة والرافضة لا تقتصر في مسائل توحيد الأسماء والصفات، بل أصل التراع ولبه قولهم بالإمامة، وما جعلوه للإمام من العصمة وحق التشريع، وقولهم بجواز البداءة(٢) على الله، تعالى الله عما يقولون، وقولهم بالرجعة والغيبة والتقية ونقص القرآن وتكفير الصحابة ولعنهم وسبهم بأقذع الكلمات وأسوئها إلا نفرًا قليلاً منهم، وهذه الأقوال والمعتقدات

(١) مقالات الإسلاميين (٣١-٣٥).

(٢) البداءة هي تجويزهم على الله، تعالى عما يقوله الظالمون، أن الله يبدو له في الأمر بخلاف ما بدا له فيه من قبل، في كتابهم الكافي باب البداء، ساق فيه الأحاديث الكاذبة لتأييد هذا الباطل= =والكفر، وقد أنكر بعض أئمتهم هذه العقيدة، لكن تقيتهم تمنع من تصديقهم، ثم لا تزال هذه الكتب تعظم والأئمة التي تقوله تعظم. وانظر إلى كتاب الشيخ الأستاذ ناصر القفاري وعنوانه مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة فقد أجاد فيه ونصح وأفاد. اللهم اهدهم وردهم للدين.

أصولها يهودية مجوسية، تلبسها قوم زنادقة فأغروا بها الناس تحت ستار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ، وكذبوا كثيرًا على أهل البيت، خصوصًا الإمام جعفر الصادق - رحمه الله - تعالى، وقوّلوه ما هو منه بريء، فأضلوا بها كثيرًا من الناس، نسأل الله تعالى لعامتهم أن يتبصروا ويتعلموا ويبتعدوا عن التعظيم المذموم للعلماء، فالله تعالى يقول ذامًّا للنصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة:٣١] ، أحلوا لهم الحرام، وحرموا الحلال فكانت عبادتهم لهم إتباعهم في ذلك، وكذلك غلوهم في المسيح حتى ألهوه وعبدوه، وليتفكروا في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الزخرف :٢٣]، وليتفكروا وليتأملوا هذا التناقض والاختلاف والكذب والتورية، من أئمتهم ومقدميهم، فهل يليق بالعاقل أن يستخفي باعتقاده وعقيدته إلا أن تكون ناقصة مذمومة.

ثم ليتق الله تعالى في هؤلاء العامة الذين يريدون الحق والجنة بعض العلماء المنتسبين لأهل السنة والجماعة، الذين يتكلمون بغير علم ولا تحقيق، فيعذر الرافضة ويحكم بإسلامهم؛ لأنهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويصلون ويصومون، وهو يعلم أن المسلم العابد الصائم لو سب الرسول أو اتهم أزواجه أو استهزأ بالدين أو جعل مع الله وسطاء يدعوهم ويتوكل عليهم، أو اعتقد أن أحدًا غير رسول الله ﷺ معصوم وله حق النسخ والتغيير والإضافة للشريعة، كفر وارتد، فهو بقوله هذا يغش العامة من الرافضة، ويجعلهم في أمن يثبطهم عن البحث والتعلم والسعي

لمعرفة الحق، فيرون أنهم بين أمرين، إما على الحق كما يقوله لهم أئمتهم، أو أنهم على غير الحق وهم معذورون في ذلك كما يقوله هذا وأمثاله من المنتسبين للسنة والجماعة.

وأختم هذا الفصل بالجواب عن ما يثيره اليوم أفراخ المعطلة النفاة حول الحديث الصحيح المتواتر، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يترل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يضئ الفجر»، فقالوا بعد أن قاسوا نزول الحق تبارك وتعالى بترولهم، وجعلوا الوقت الذي هو خلقه في حقه كالوقت في حقهم أن القول بالحديث يستلزم نزول الرب تبارك وتعالى كل اليوم لاختلاف ثلث الليل من بلد لآخر.

وما كان الشيطان ليغويهم عن الحق ويحرمهم الخير الذي احتواه الحديث لو صح منهم التسليم لما صحّ عن الرسول ﷺ، وما كان ليضلهم لو سلموا من تشبيه وتمثيل الخالق بالخلق ففروا منه إلى النفي والتعطيل، ولو صحت منهم العقول فقدروا الله حق قدره، وقدروا علومهم وأنفسهم حق قدرها لما قاسوا الوقت عندهم بالوقت عند خالقه الذي يصرفه كيف شاء، قال تعالى: وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

* * *

وهذه بعض النقول لاعتقاد الشيخ وتلاميذه في باب أسماء الله وصفاته:

قال الشيخ: «ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه على لسان رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، بل أعتقد أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أحرف الكلم عن مواضعه، ولا أُلحد في أسمائه وآياته، ولا أُكيف ولا أُمثل صفاته تعالى بصفات خلقه؛ لأنه تعالى لا سميَّ له ولا كفءَ له ولا ندَّ له، ولا يقاس بخلقه، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثًا، فتره نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتمثيل، وعما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل، فقال سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»(١).

وللشيخ حمد بن ناصر رسالة باسم «التحفة المدنية في العقيدة السلفية» في جواب سؤال ورد من المدينة المنورة يسأل السائل فيه عن اعتقاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الآيات والأحاديث الواردة في الصفات طالبًا بسط القول وتفصيل الجواب.

فأجاب – رحمه الله – إجابة شافية كافية بدأها بقوله: «قولنا في آيات الصفات والأحاديث الواردة في ذلك ما قاله الله ورسوله، وما قاله سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم من علماء المسلمين، فنصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل نؤمن بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج (١/ ٢٣).

وهو السميع البصير، فلا ننفي عنه ما وصف به نفسه ولا نحرف الكلم عن مواضعه ولا نُلحد في أسماء الله وآياته، ولا نُكيف ولا نُمثل صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سميَّ له، ولا كُفو له، ولا نِدَّ له، ولا يُقاس بخلقه، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا. فهو سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. بل يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تكييف ولا تمثيل، خلافًا للمشبهة. ومن غير تحريف ولا تعطيل، خلافًا للمعطلة.

فمذهبنا مذهب السلف إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، وهو مذهب أئمة الإسلام كمالك والشافعي والثوري والأوزاعي وابن المبارك والإمام أحمد وإسحاق بن راهويه، وهو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم كالفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة نزاع في أصول الدين.

وكذلك أبو حنيفة رضي الله عنه، فإن الاعتقاد الثابت عنه موافق لاعتقاد هؤلاء، وهو الذي نطق به الكتاب والسنة. قال الإمام أحمد - رحمه الله -: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يُتجاوز القرآن والحديث.

وهكذا مذهب سائرهم كما سننقل عبارتهم بألفاظها إن شاء الله تعالى، ومذهب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - هو ما ذهب إليه هؤلاء الأئمة المذكورون»(١). وهذه الرسالة موجودة بتمامها في المجلد الثالث من الدرر السنية في الأجوبة النجدية، والذي خُصص لرسائل أئمة الدعوة الخاصة بتوحيد الأسماء والصفات.

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (ج٣/ ٢٠٧-٢٦٢).

الشبهة العاشرة: الخروج على الدولة العثمانية

قالوا: خرج على دولة الخلافة وحاربها وأخذ مكة والمدينة منها، والدولة العثمانية هي دولة الخلافة والخروج على ولاة الأمر وشق عصا الطاعة من سِيمَا الخوارج.

وسبب الشبهة أن أتباع الإمام محمد بعد وفاته أخذوا مكة المكرمة والمدينة المنورة والحجاز، من يد نائب السلطان العثماني الشريف غالب، وصارت ضمن ولايتهم ودولتهم، وجعلوا على مكة الشريف زيد.

وقبل الجواب على الشبهة، أقرر بأن للدولة العثمانية المكانة العالية في نفوس المسلمين، فجيش الخليفة محمد الخامس هو من فتح القسطنطينية، وجيوشها كانت في جهاد وقتال مع الكفار حتى وصل أبطالها إلى حدود بلاد النمسا، فنشرت الإسلام في تلك البلاد، وساهمت المساهمة المحمودة في تاريخ الإسلام، وما حصل من جيوشها وقت حربها لدعوة الإمام محمد وقضائها على الدولة السعودية الأولى وهدمها لعاصمتها الدرعية وقتلها لإمام الدولة عبد الله بن سعود - رحمه الله - والعلماء والأعيان، وقع بعد أن تغير حال هذه الدولة، ووقعت في الشرك والجهالة. وهو أمرٌ قد مضى، والإمام محمد وأتباعه والترك ومن أعانهم وشاركهم يشتركون في انتمائهم للسنة والجماعة، فهم لا يحملون الحقد القديم ويعذر بعضهم بعضًا، ويتجاوزون ما حصل من خلاف كانت له أسبابه ودواعيه.

والجواب على تهمة الخروج على الدولة من وجوه متعددة:

أولها: أن نجدًا لم تكن تحت ولاية السلطان العثماني المباشرة، ولم يكن يأبه لها لعدم أهميتها السياسية والاقتصادية، فكان لكل مدينة وقرية في نجد أمير يحكمها،

والقتال بين أهلها مستعر، فالحضر يقتتلون والأعراب كذلك، وكان أهلها في شر حال، في جهل وضعف وخوف وفقر ومرض، فمنَّ الله عليها بظهور الشيخ محمد، يدعوهم إلى العلم والتوحيد ونبذ الشرك والخرافة، وقاتل من لم يستجب للدين بعد الدعوة والبلاغ، حتى أذعنت له نجد حاضرها وباديتها، والأحساء والقصيم وشمال الجزيرة وجنوبها، وكانت همته للإصلاح عالية ورغبته في تطهير بلاد الإسلام كلها من مظاهر الشرك والوثنية بينة ظاهرة، ولكنه كان يهادن الشريف مسعود ثم الشريف مساعد ثم الشريف أحمد ثم الشريف سرور ثم الشريف غالب، والذين تعاقبوا على إمرة الحجاز نوابًا للسلطان العثماني، فكان يدعوهم بالحسنى ويرسل العلماء لهم لبيان حقيقة الدعوة، ثم كان لتنامي قوة هذه الدولة الفتية واتساع سلطانها ونفوذها أثر في تخوف الشريف غالب منها، فمنع أتباع الشيخ وأهل نجد من حج بيت الله الحرام، وبدأ هو بحربها وقتالها فأرسل جيشه سنة ١٢٠٥هـ، فباء هذا الجيش بالخذلان بعد أن عجز عن حصن بقرية السر، تحصن به أتباع الشيخ فحاصرهم وطال حصاره حتى مل جنوده وتفرقوا عنه، ثم عاد فغزا نجدًا سنة ١٢١٠هـ وتقابل مع حليف الدولة السعودية أمير قحطان الشيخ هادي بن قرمله ومعه بعض عتيبة ومطير فهُزم الشريف وعاد بجنده للحجاز، وهُزم مرة أخرى بمدينة الطائف على يد صهره عثمان المضايفي، والذي آثر مناصرة الدعوة لما رأى فيها من الحق والصدق، ولم تدخل الجيوش السعودية مكة إلا سنة ١٢١٧هـ يقودها الإمام سعود في ولاية أبيه عبد العزيز، فدخلوها دون حرب مُهلين محرمين، وقاموا بهدم القباب المبنية على القبور، والتي كانت مكانًا للشرك والبدعة، وألزموا الناس بصلاة الجماعة، وجمعوهم على إمام واحد،

بعد أن كانوا يصلون متفرقين لكل مذهب إمام وصلاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وأمنوا طريق الحاج وألغوا المكوس والأتاوى التي تؤخذ من الحجاج، ومنعوهم من التعبد بالبدع والخرافات، وأمَّروا على مكة المكرمة الشريف عبد المعين.

ولكن ما إن عادت الجيوش لمواطنها، عاد الشريف غالب وأخذ مكة، فقاتلته الدولة السعودية بقيادة زعيم عسير وتهامة العبد الصالح عبد الوهاب بن عامر، المعروف بكنيته أبو نقطة، فهزمته وعادت مكة والحجاز كلها لها سنة ١٢٢٠هـ، وأمَّروا عليها الشريف غالب.

أغاظ ذلك الدولة العثمانية، إذ فيه انتقاص لهيبتها ومكانتها بين المسلمين، فجيشت الجيوش وأعدتها بالرجال والسلاح وتابعت إرسالها من سنة ١٢٢٦هـ حتى تحقق لها إسقاط الدولة السعودية الأولى وهدم الدرعية وقتل وأسر أمراءها وعلماءها سنة ١٢٣٣هـ.

والوجه الثاني: إن سلمنا بخروج الشيخ وأتباعه على الدولة العثمانية فذلك خروج جائز مطلوب، فرسول الله ﷺ أمر بالسمع والطاعة لإمام المسلمين والصبر على ظلمه وفسقه للمفاسد العظيمة المترتبة على الخروج، ولكنه حد حدًّا يجوز بعده الخروج على الإمام، وذلك الحد رؤية الكفر البواح أي البين الواضح، ففي الصحيحينعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضى الله عنه قَالَ: «دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا

وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»(١).

وحال الدولة والناس ذاك الزمان كما هو معروف مشهور، أن الدولة تبني أماكن الشرك وتعظمها وتحميها، وتشجع وتعين الطرق الصوفية المنحرفة وتدعو إليها في بلاد الإسلام، وبين المسلمين، ففشت وعظُمت بينهم الجهالة والشرك والخرافة، وهذا كفر بواح شائع مشاهد، فجاز الخروج عليها، ولا يلزم من ذلك تكفير شخص الخليفة ورجال الدولة، فالكفر البواح البين المبيح للخروج، يكون عند ظهوره في أعيانهم، أو في دولتهم وسلطانهم وإقرارهم ودفاعهم عنه، ففتنة الكفر والشرك أعظم من أي فتنة ومفسدة، فكان لأتباع الشيخ العذر البين في خروجهم على الدولة العثمانية عند كل منصف. وما نقله المؤرخون كالجبرتي وغيره من وصف لجيش الدولة العثمانية وما كانوا عليه من ترك للصلاة واستهزاء بالدين وشرب للخمور يؤكد الحال التي آلت إليها الدولة العثمانية.

والوجه الثالث: فرح الإنجليز والفرنسيون بنجاح محمد علي في هزيمته للدولة السعودية وإيقافه لخطر توسعها وتهديدها لسلطانهم ومصالحهم، وتهنئتهم له وللدولة العثمانية بذلك النصر مع عدواتهم للدولة العثمانية، ذلك أنهم عرفوا أن مفسدة الدعوة ودولتها عليهم أعظم من مفسدة الدولة العثمانية، فقد رأوا في هذه الدعوة والدولة خطرًا ينذر بعودة المسلمين إلى دينهم وجهادهم، وقد عانى الإنجليز من أنصار الدعوة القواسم ومركزهم رأس الخيمة - الذين كان لهم البلاء الحسن والشجاعة والإخلاص - الضرر والأذى الكثير بهجماتهم البحرية المتكررة

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب: قول النبي: (سترون بعدي أمورًا تنكرونها)، ح(٦٦٤٧).

الشجاعة على أسطول المملكة البريطانية وتهديدهم لسلطانها في منطقة الخليج العربي، والمحيط الهندي، ولم يتجرأ الإنجليز على رأس الخيمة إلا سنة ١٣٣٤هـ، بعد سقوط الدولة السعودية فقصفوها قصفًا عظيمًا وأسقطوا دولة القواسم.

والوجه الرابع: أن الشيخ وأتباعه لم يسقطوا الدولة العثمانية بل هي التي أسقطت دولتهم، ودولتها لم تسقط إلا بعد سقوط الدرعية بمائة سنة تقريبًا، بعد أن تحالفت وحاربت مع الألمان في الحرب العالمية الأولى، وخسارتهم لمصلحة الإنجليز والفرنسيين وحلفائهم، فتقاسم المنتصرون بينهم بلاد الإسلام والعرب خصوصًا.

* * *

وهذه أقوال الشيخ وتلاميذه في ما يتعلق بهذه الشبهة:

قال الشيخ – رحمه الله –: «وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به، وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته وحرُم الخروج عليه»(١).

وقال: «من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبدًا حبشيًّا».

فالقول بأن الشيخ وأتباعه خرجوا لإعادة الخلافة للعرب قول خاطئ يخالف ما يدين الشيخ الله به.

وقال هو والإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود في رسالة للشريف أحمد بن سعيد: «فإذا كان سبحانه قد أخذ الميثاق على الأنبياء إن أدركوا محمدًا ﷺ على الإيمان

(١) مؤلفات الإمام محمد ج٦/١١.

به ونصرته فكيف بنا يا أمته؟ فلا بد من الإيمان به، ولا بد من نصرته، لا يكفي أحدهما عن الآخر، وأحق الناس بذلك وأولاهم به أهل البيت الذي بعثه الله منهم، وشرفهم على أهل الأرض، وأحق أهل البيت بذلك من كان من ذريته ﷺ»(١).

فالظاهر من الرسالة أن الشيخ محمد والإمام عبد العزيز، همهم قيام الدين وظهوره وهم جند للشريف إن قام بذلك وتسنم له.

* * *

(١) مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب ج٦/ ٣١٢.

التعريف بالإمام محمد بن عبد الوهاب

هو الإمام العالم الرباني، الذي جدَّدَ اللهُ به ما اندرس من معالم الدين القويم، فأحيا به السنة وأمات البدعة، ومحا به ما انتشر في بلاد المسلمين من الشرك والضلالة، دعا إلى الله على نور وبصيرة وعلم. فدعا الناس إلى أول ما دعا إليه الأنبياءُ أقوامهم، إلى التوحيد الخالص الذي لا يقبل الله سواه، إلى فهم معنى لا إله إلا الله وتحقيقها اعتقادا وقولا وعملا، فلا معبود بحق إلا الله، وأبدى في ذلك الأمر وأعاد، لمخالفة كثير من الناس للتوحيد، وملابستهم للشرك بصرف أنواع من العبادات لله ولغيره من الأموات، فخطب وحاضر، وراسل وألَّف، وحذَّر الخاصَّ والعامَّ، والقريب والبعيد، وتحمّلّ لهذا الأمر العظيم والخطب الجسيم - الذي ضلَّ فيه كثيرٌ من المسلمين - التكذيب والتجهيل، والعداوة والقتال، من القريب والبعيد، حتى تحقَّق - بفضل الله وكرمه، وعلى يد من اختار وأكرم من عباده - تحقيقُ أصل الدين بإفراد الله وحده بالعبادة، ونفيها عن كل ما سواه. وتبع ذلك إقامة شعائر الإسلام، من الصلاة والزكاة وبقية الأركان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى شابه حال الناس ما كان عليه السلف الأول من الصحابة والتابعين.

وهذا تعريف بالإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - مجموعٌ ومنتقى، وبتصرف وزيادات، ممَّا كتبه المشايخ: ابن غنام[١]، وابن بشر[٢]، وعبد الرحمن بن عبد اللطيف[٣]، وعبد اللطيف بن عبد الرحمن[٤].

نسبه ومولده ونشأته:

هو الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي المشرفي نسبة إلى جده مشرف، الوهبي نسبة إلى وهيب، والوهبة بطن من حنظلة، وحنظلة بيت من بيوت تميم الأربعة[٥].

ولد الإمام محمد سنة ١١١٥ هجرية في بلدة العيينة من أقليم نجد إلى الشمال الغربي من الرياض اليوم، في بيت علم ودين، فأبوه الشيخ عبد الوهاب من علماء نجد وقضاتها، وجده الشيخ سليمان بن علي مفتي نجد، وأشهر علمائها وقضاتها، انتهت له الرئاسة العلمية في نجد. انتقل الشيخ سليمان من أشيقر التي هي مقر الوهبة إلى روضة سدير قاضيا لها، ثم وقع بينه وبين أعيانها خلاف انتقل بسببه منها إلى بلدة العيينة، فتولَّى قضاءها، وتُوفِّيَ بها. فخلَفَهُ ابنُه الشيخ عبد

---

[١] أنظر كتناب روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام ويسمى تاريخ نجد

[٢] أنظر كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد

[٣] أنظر كتاب مشاهير علماء نجد

[٤] أتظر الرسالة قي مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ج/ص

[٥] أنظر كامل النسب من كتاب ابن بسام

الوهاب، ووُلِدَ له فيها الإمام محمد، فنشأ وشبَّ بالعيينة نشأة علمية دينية، فحفظ القرآن في العاشرة من عمره، وبدت عليه علامات النجابة والصلاح، فقدمه أبوه لإمامة الصلاة.

رحلاته العلمية وأشهر شيوخه:

وما إن اشتدَّ عودُه حتى شدَّ رحله حاجاً لبيت الله الحرام، فلما أتمَّ نسكه وقضى تفثه، أقبل على علماء البيت الحرام، فسمع وسأل واستفاد، ثم توجَّه إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وأقام فيها قريبا من شهر[1]، ثم عاد إلى بلدهِ العيينة فتزوَّجَ، وقرأ على والده فقه الحنابلة. ثمَّ رحل أُخرى إلى الحجاز، وأقام مدة يتردد على علمائها، ويأخذ منهم فنون العلم المختلفة، من عقيدة وفقه وتفسير وحديث ولغة وأصول. وكان من أشهر من أخذ عنهم العلم فيها، الشيخ المحدث محمد حياة سندي، صاحب الحاشية على صحيح البخاري، ويُروى أن شيخه السندي سأله حين رآه ينظر إلى العامة وهم يتوسلون ويسألون ويدعون النبي ﷺ عند الحجرة النبوية ما تقول في هؤلاء، فقال متحسراً مشفقاً عليهم: هؤلاء قوم ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا[2]. وقد أجاز الشيخ السندي الإمام بمروياته وأفاده من علومه، ومِن خاصة مَنْ قرأ الشيخ عليهم الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي أصلاً والمدني موطناً، أخذ عنه

---

[1] وقال ابن بسام: أقام شهرين

[2] وقيل قال: إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون

مسلسل الحنابلة بالأولية، وقرأ عليه وأخذ منه، وكان كثيراً ما يزوره في مزرعته خارج المدينة.

ورجع الإمام إلى وطنه، وأقام بها سنة، ثم رحل إلى البصرة فقرأ على علمائها واستفاد منهم علوما، ولازم الشيخ محمد المجموعي البصري، وطالت إقامته بها، وكتب فيها الحديث والفقه واللغة، ومنها بدأ بالدعوة إلى التوحيد، فكان كثيراً ما يقول الدعاء كله لله، لا يجوز صرف شيء منه إلى سواه. ويُنكر على الناس دعاء الصالحين، والاستغاثة بهم، واللجوء إليهم في الملمات والمدلهمات، ويُبيِّنُ أنَّ محبتَهم متابعتُهم فيما كانوا عليه من الإخلاص لله في العبادة، وما كانوا عليه من المتابعة لرسول الله ﷺ فيما أمر به ونهى عنه. يجادل بذلك بالحكمة والموعظة الحسنة علماء البصرة، وينكر على العامة ويخوِّف ويحذِّر، وشيخه المجموعي يؤازره ويُحسِّنُ دعوته. ولكن علماء السوء المنتفعين من هذه المزارات والقبور، حرَّضت العامة والدهماء، الذين أُشرِبت قلوبُهم هذه الضلالات والشركيات، فأنكروا على الإمام ما يدعوهم إليه من الحق والتوحيد، فآذوه وأخرجوه من البصرة طريداً وحيداً، وقت الهاجرة في يوم صيفٍ حار، فخرج راجلاً متوجهاً تلقاء بلدة الزبير، إذ هي أقرب حاضرة للبصرة، ويسكُنُها كثير من أهل نجد، استوطنوها هرباً من الحروب والفقر والجوع، فأدركه في طريقه إليها العطش، وأشرف على الهلاك، فأنقذه الله برجل من أهل الزبير يقال له ابن حميدان، فسقاه وحمله على حماره حتى أوصله البلد.

وكان الإمام قد ألَّفَ كتابه، الجليل القدر، العظيم النفع، الذي سماه كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، مدة إقامته بالبصرة كما قاله حفيده الشيخ عبد

الرحمن ابن حسن، وقيل بل ألفه في مدينة حريملاء بعد عودته من البصـــرة. ثمَّ إنَّ الإمام همَّ بالسفر إلى الشام، فقلبه لها يحن، فهي دار شيخ الإسلام ابن تيميـــة، و تلميذه ابن القيم، وابن كثير، والذهبي، الذين يجلهم ويقتدي بهم، وهما مشـــاهير فقهاءِ الحنابلة، ولكنَّ نفقته قصرت عن مراده. فرجع قافلاً إلى بلده مروراً بمنطقة الأحساء، قصدها رغبة في الاجتماع بعلمائها وفقهائها.

فنزل على عالمها الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي الشـــافعي، فأكرمه وجمعه بعلماء الأحساء، ومنهم العالم عبد الله بن فيروز، فأثنى عليه الشيخ لمعرفته بعقيدة الإمام أحمد، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: وجدَ عنـــده مـــن كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ما سُرَّ به. ثم عـــاد مـــن الأحســـاء إلى حريملاء بعد أن انتقل والده إليها نتيجة خلافه مع أمير بلدة العيينة محمد بن حمـــد بن معمر الملقب خرفاش، والذي كان قد تولى إمارة البلد بعد وفاة جـــده ســـنة ١١٣٩ هجرية. فاستأنف القراءة على والده، وأكَبَّ على المطالعـــة في كتـــب التفسير والحديث، وكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم، واللذان يُعدان بحقٍ من أهم شيوخه، وهو يُعَدُّ من أبرز تلاميذهم، إذ تأثُّره بهم واضح جلي، ونقله عنهم كثير، وقد نشر علمهم بين الناس، وأظهره ودعا إليه، حين وافق ما عندهم مـــن العلوم ما جاء في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ ، وما كان عليـــه الصـــحابة، والسلف الأول من أئمة الدين وأعلامه.

الدعوة إلى التوحيد في حريملاء والعيينة:

وفي حريملاء بدأ الشيخ دعوته إلى الله تعالى، بتحقيق التوحيد الخالص من الشرك، فخشِيَ عليه أبوه، شفقة الوالد لولده، وحجزه عن التوسُّع في دعوته. وما لبـــث

والده أن توفاه الله سنة ١١٥٣ هجرية، فشمَّرَ الإمام عن ساعد الجد والجهاد، يقرر العقيدة الصحيحة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حتى ضاق به وبدعوته أهلُ الفسق والفجور، ممن كانوا يفسدون في القرية ولا يصلحون، من موالي أمراء حريملاء، الذين ساءهم أمره ونهيه، وتضييقه عليهم، ما كانوا يقترفونه من الفجور والتعدي، فتعاقدوا بينهم الفتكَ به. فتسوروا جدار بيته، فرآهم الناس وصاحوا بهم، فهربوا ونجَّى اللهُ عبده لما يريده له من الكرامة والتمكين. بعد هذه الحادثة لم يطمئن الإمام للبلدة فخرج منها قاصداً حاضرة نجد وأكثرها سكاناً وعمراناً ذلك الوقت، مدينة العيينة، والتي وُلِدَ بها ونشأ فيها. فلما أتاها لاقاه أميرها عثمان بن محمد بن معمر بالحفاوة والتكريم، والوعد بالنصر والتأييد. فنشط الشيخ وتلاميذه في الدعوة والتدريس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكَثُرَ الأتباع، وقويت الشوكة، وحصل التمكين لهم في البلد، فأزالوا ما كان يتعلَّقُ به مَن ضلَّ مِن المسلمين، حتى وقع في الشرك المبين، مِن أشجارٍ تُعظَّم وتُعبد، وقبابٍ مشيَّدة على القبور تُدعى من دون الله وتُطلب، وتُشَدُّ إليها الرحال فتركب، وتُقرَّبُ لها النذور فتذبح.

ثمَّ هدَمَ القُبةَ المُعظَّمةَ على القبر المنسوب للصحابي الجليل زيد بن الخطّاب – رضي الله عنه – في الجبيلة، قرية تابعة للعيينة، وكان الشيخ – رحمه الله – هو مَن تولَّى هدم هذه القُبة بيده، وكذلك أمر بالصلاة والزكاة، وأقام الحدود، فأتته امرأة تائبة إلى الله مما أذنبت، فاعترفت عنده بالزنا، فأعرضَ عنها، وعرَّضَ لها، فألحَّت وأصرَّت، فلمَّا تكرَّر منها الاعتراف والإقرار، وهي سليمة العقل والإدراك، أُمِرَ بها فرُجمت.

ولم يزَلْ أمره في علُوٍ وازدياد، حتى ذاع صيته في البلاد، وانتشر أمره في القرى والأمصار، وأتاه الأتباع من كل حدب وصوب. حتى سمع به وبدعوته حاكمُ الأحساء الأمير سليمان بن محمد بن عريعر الخالدي، والذي سعى علماء السوء والفُساق إلى تخويفه من الشيخ ودعوته، وأن فيها الخطر على سلطانه ونفوذه، فأغروه به وحرضوه عليه. فكتب أمير الأحساء – وكان له شوكة وسلطان على جميع أمراء نجد – إلى عثمان بن معمر يأمره بقتل الإمام أو إخراجه من بلده، وشدَّدَ وهدَّد. فاستعظم الأمرَ عثمان، ولم يكُنْ ذا يقين متين، فآثر الدنيا على الدين، وأمر الشيخ بالخروج من العيينة.

حلف الدرعية مع الإمام محمد بن سعود:

خرج الشيخ من العيينة سنة ١١٥٨ هجرية مولياً وجهه شطرَ بلدةِ الدرعية، القريبة من العيينة. فقصد بها تلميذَه الشيخ أحمد بن سويلم، الذي فرِح به وأكرمه. ولمَّا سمِعَ بقدومه أميرُ الدرعية الإمير محمد بن سعود، أسرع إليه في مترل مضيفه، مرحباً ومحتفياً، ويُقال أن امرأةَ الأمير – وكانت عاقلة صالحة – أشارت عليه بإكرام الشيخ ونصرته، وقالت له: هذا خيرٌ ساقه الله لك، فلا تضيعه. فلمَّا تقابل الإمامان في بيت الشيخ أحمد بن سويلم، عرض الإمام محمد دعوته، وبيَّنَ ما يدعو الناس إليه، من العودة إلى ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام والقرون المفضلة، وما وقع فيه الناس من الشرك والبدع والضلال. فتحقق عند الأمير محمد صدق الشيخ، وصدق دعوته، فقال الأمير: يا شيخ هذا دين الله ورسوله، الذي لاشكَّ فيه، فأبشر بالنصرة لك ولدعوتك، وجهادِ مَن خالف التوحيد وصدَّ عن الدين. وكان الأمير متفائلاً بالنصر والتمكين، فاشترط على

الشيخ أن لا يرحل عنهم ويستبدل بهم غيرهم، إذا حصل له التمكين والظهور، وأن لا يمنعه الشيخ ما يأخذه من ضريبة على أهل بلده وقت الثمار. فأعطاه الشيخ شرطه الأول، ومنعه الثاني، مبشراً له بأنَّ الله سيعوضه عنه خيراً كثيراً، وهذا تفاؤلٌ من الشيخ، وثقة بنصر الله. فتبايعا على دين الله ورسوله، والجهاد لنشر الدعوة وإزالة الشرك كله، وإقامة الشرائع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فابتدأ من ذلك الميثاق والعهد تاريخ الدولة السعودية الأولى، التي امتدَّ سلطانها على معظم الجزيرة العربية، وأطراف الشام والعراق.

إقامة الحجة ثم الجهاد لتحقيق التوحيد وإزالة الشرك:

بدأ الشيخ يُناصح ويُعلم ويُراسل الأمراءَ والعلماءَ وعامةَ الناس. فقصَدَهُ النَّاسُ من العيينة، ومن غيرها من القرى والأمصار، يتعلمون العلم، وينصرون الدعوة للتوحيد. وندم الأمير عثمان بن معمر على طرده للشيخ، وتفريطه بالزعامة والرئاسة، فقدم عليه مع رجال من عِلية قومه، وأرادوه أن يرجع معهم، ووعدوه النَّصر والمنعة. فأحالهم الشيخ محمد إلى الأمير محمد بن سعود، وقال: لا أستبدل برجل تلقاني بالقبول غيره إلا أن يختار هو ويأذن. فما أذن الأمير محمد بن سعود، وما كان ليفرط بهذا الخير الديني والدنيوي، فرجع عثمان مضمراً العداوة والشر، مظهراً المناصرة والخير.

قام الشيخ بالدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، يدعو الأمراء والعلماء والعامة، وكتب بذلك إلى البلدان، يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، لم يبادر بتكفير أحد بعينه، ولم يبدأ بغزو أحد، لعلَّ الناس يهتدون بالوعظ والتذكير، ففريقٌ قبل الحق، وفريقٌ سَخِرَ واستكبر. ولأنَّ دعوته شكَّلتْ خطراً على أهواء

كثير من الأمراء وعلماء السوء، في جاههم وسلطانهم ومكانتهم، فسعوا لتنفير الناس عنه، بالأكاذيب والشبهات، فقوَّلوه ما لا يقول، ورَمَوُهُ بالجهل والسِّحر، وتنقص الأولياء والصالحين، وبدَّعوه وكفَّروه، وابتدئوه بالتكفير والقتال، فأباحوا دمَهُ ودمَ أتباعه الموحدين. حينها أمر الأمير والشيخ أتباعَهم بالجهاد، وحرَّضُوهم عليه، ورَغَّبُوهم فيه. وكان الأمير يعرف للشيخ فضله وحقه وصدقه، فلا يصدر منه رأي ولا أمر، إلا بأمر الشيخ وتوجيهه، وجاءهم النصر من الله تعالى، فعلا أمرهم، واتسعت دولتهم.

تُوفِّيَ الإمام محمد بن سعود – رحمه الله – عام ١١٧٩ هجرية، فعقد الشيخ محمد البيعة والإمارة للإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، والذي كان قائداً محنكاً للجيوش، وعالما محققا للأصول. فما زال يقود الجيوش حتى فتحوا الرياض عام ١١٨٧ هجرية، بعد حرب مع أميرها دهام بن دواس دامت ثمانيَ وعشرين سنة، انتهت بفزعٍ وهلعٍ أصاب ابن دواس، جعَلَه يترك بلده هارباً خائفاً. وبعد سقوط الرياض، دانت له نجدٌ كلُها، وما لبثت أن تبعتها الأحساء.

كان الشيخُ مَن الذين يذكرون الله تعالى كثيراً، ويشكرونه ويدعونه، ويردد قول الله تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾. ويتمثل بهذه الأبيات:

بأي لسان أشكر الله إنه — لذو نعمة قد أعجزت كل شاكر
حباني بالإسلام فضلا ومنةً — عليَّ و بالقرآن نور البصائر

وبالنعمة العُظمى اعتقاد ابن حنبل ... عليها اعتقادي يوم كشف السرائر

تلاميذه:

تلاميذه عدد كبير، عدَّ منهم الشيخ ابن بسام في ترجمته للشيخ ثمانية عشر عالماً. مِن أشهرهم أبناؤه الشيخ عبد الله وحسين وعلي وإبراهيم، والشيخ حمد بن معمر، والشيخ عبد العزيز الحصين، والشيخ حسين بن غنام، والشيخ محمد بن غريب، وحفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن، والإمامان عبد العزيز بن محمد، وابنه سعود، وسعيد بن حجي، والفرضي عبد الرحمن بن خميس، وعبد العزيز السويلم، وحمد بن راشد العريني. فهؤلاء أشهر مَن عاصر الشيخ وقرأ عليه. وله تلاميذ جاءوا من بعده استفادوا من كتبه وآثاره، وأصوله وقواعده ومنهجه.

وفاته وما رُثِيَ به:

وقد رثاه العلماء والشعراء بشعر رائق بديع، فيه الصبر على المصيبة والمفزع إلى الله عند حلولها، ذاكرين لنعمة الله على الأمة بدعوة الشيخ، وبعودة التوحيد، واندحار الشرك، مترحمين على الشيخ، داعين له، ومعددين لفضله، وعلمه، وجهاده. فكان ممن رثاه تلميذه الشيخ ابن غنام في قصيدة مؤثرة من تسعةٍ وثلاثين بيتاً، يقول في مطلعها:

إلى الله في كشف الشدائد نفزع ... وليس إلى غير المهيمن مفزع

لقد كسفت شمس المعارف والهدى ... فسالت دماء على الخدود و أدمع

إمام أُصيب الناس طراً بفقده ... وطاف بهم خطب من البين موجع

ورثاه إمام اليمن وشيخها، الشيخ محمد بن علي الشوكاني فقال في مطلع قصيدته الدالية:

سلامي على نجد ومن حلَّ في نجد وإن كان تسليمي على البُعد لا يُجدي

وقد صدرت من سفح صنعاً سقى الحيا رباها وحيَّاها بقهقهة الرعد

سرت من أسير ينشد الريح إن سرت ألا يا صبا نجد متى هِجت من نجد

قفي واسألي عن عالمٍ حلَّ سوحها به يهتدي من ضلَّ عن منهج الرُشد

محمد الهادي لسنة أحمد فيا حبذا الهادي ويا حبذا المهدي

مؤلفاته:

وقد قامت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بجمع مؤلفات الإمام محمد في اثني عشر مجلدًا، احتوت على المؤلفات التالية:

كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

كتاب كشف الشبهات.

كتاب ثلاثة الأصول.

كتاب القواعد الأربع.

كتاب فضل الإسلام.

كتاب أصول الإيمان.

كتاب مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد.

مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان.

كتاب الكبائر.

كتاب مختصر الإنصاف والشرح الكبير.

كتاب آداب المشي إلى الصلاة.

كتاب مختصر سيرة الرسول ﷺ.

مجموعة فتاوى ومسائل.

كتاب فضائل القرآن.

كتاب تفسير آيات من القرآن الكريم.

كتاب مختصر زاد المعاد.

مجموعة من الرسائل الشخصية (٥١ رسالة).

كتاب في أحاديث الأحكام (٤٦٠٠ حديث تقريبًا).

رسالة في الرد على الرافضة.

رسالة في تفسير سورة الأنفال.

اختصار لمجموعة مسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية.

الخطب المنبرية (مجموعة من خطب صلاة الجمعة).

وكان الشيخ سليمان بن سحمان - رحمه الله - من قبلُ قد جمع رسائل الإمام وأئمة الدعوة السلفية، في كتاب مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، ثم جاء الشيخ عبد الرحمن بن قاسم - رحمه الله - فرتب هذه الرسائل على أبواب الفقه، وتتبع ما نقص فجمعه وهذب ورتب، وسمى كتابه الدرر السنية في الأجوبة النجدية؛ فكان الكتابان عمدةً في ما كتبه إمام الدعوة وأبناؤه وتلاميذه وتلاميذهم.

التعريف بالدعوة السلفية في نجد

دعوةُ الشيخ هي الدعوة إلى تحقيق التوحيد، الذي هو حق الله على العبيد، بإخلاص العبادة لله وحده، ونفيها عن كل ما سواه. فاللهُ تعالى خلق الخلقَ ليعبدوه وحده، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦]. وابتلاهم وامتحنهم حتى يتبين أهل اليقين والصدق والإيمان مِن أهل الشك والكفر والنفاق، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سورة الملك : ٢]. وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ١-٣]. ونَزَّه جلَّ جلاله نفسه عن العبث واللهو والباطل، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة ص : ٢٧]. واللهُ غنيٌّ عن العباد من كل وجه،

وهم فقراء إليه في كل شيء، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة فاطر : ١٥]. فالله حكيم خبير علـــيم، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ، والناس والجنة يُسألون.

والله رحيم بعباده، أنزل إليهم كتبه وأرسل رسله، هدايـــة للصـــراط المســـتقيم، ومبشرين ومنذرين. وكانت الدعوة إلى عبادة الله وتأليهه وحده هي أول ما تدعو الرسل إليه يقول الله تعالى عن نوحٍ عليـــه الســـلام: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف :٥٩]. وكذلك قال هودٌ لعـــاد، وصالحٌ لثمود، وشعيبٌ لمدين ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [سورة هود : ٥٠]. وهكذا الرسل كلهم – عليهم الصـــلاة والســـلام – يبدءون بالتوحيد أقوامهم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٥] وقـــال تعـــــالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ ﴾.

والتوحيدُ هو الكفر بكل الطواغيت، والإيمان بالله، والبراءة من كل ما يُعبد مِـــن دون الله، وعبادة الله وحده. فالذي يخلق ويرزق، ويحي ويميت، ويعطي ويمنـــع، ويخفض ويرفع، هو المستحق وحده للتأليه والعبادة. قال تعـــالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ

بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الزخرف : ٢٦-٢٨].

هذه العبادة التي خلق الله العباد لأجلها، وأمرهم بها، ورتَّب الفوز والنجاة بتحقيقها، ولا يغفر لمن مات وهو يصرفها لغيره، حقيقٌ بالعبد أن يتعلمها، ويصرفها لله تعالى وحده. هذه العبادة هي: الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة، التي تصدر من العبد على وجه الذُلِّ والخضوعِ والتأليهِ لِمَنْ صُرفت له. فإذا صُرِفت للمستحق لها على الحقيقة، وعلى الوجه الذي شرع، كانت عبادة صحيحة متقبلة. وإذا صُرفت للمستحق لها، على غير الوجه الذي أمر وشرع، كانت بدعة مذمومة مردودة، وكلٌّ بدعة ضلالة. أما إذا صُرِفت العبادة لغير مستحقها فلا تكون إلا كفراً وشركا. سمَّى الله تأليههم لغيره عبادة، ولكنها عبادة جاهلية باطلة، فقال الله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٦٤].

وسمَّى الله هذه المعبودات آلهةً، ولكنها في الحقيقة آلهةٌ لا تستحق التأليه والعبادة. قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾ [سورة مريم

: ٨١]، وقال تعالى حاكيا قول مؤمن القرية: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [سورة يس : ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الأنعام: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٢] وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [سورة الأسراء : ٤٢]. فالله جلَّ جلالُه سمَّى مَن صُرفت لهم العبادة والتأليه آلهة، ونفى الله أن تكون هذه المعبودات المؤلهة آلهة في الحقيقة، إذ لو كانت كذلك لفسدت السموات والأرض، ولبغى كلُّ إله العلوَ والتفردَ. ونفى عن هذه الآلهة المزعومة، الاستقلال بنفع نفسها، فضلا عن نفع غيرها، وأخبر عن عظيم خسارة مَن ألَّه هذه الآلهة، فعبدها مع الله، أو من دون الله. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٩٧] وقال تعالى: ﴿ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣ ﴾ [سورة الحج : ١٢-١٣]. والآيات الدالة على هذا الأمر العظيم كثيرة بينة صريحة، لمن كان له قلبٌ، أو ألقى السمعَ وهو شهيد.

لَمَّا رأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما وقع الناس فيه من الشرك، نتيجة للجهل والتقليد، بدأ دعوتَه وجهاده ليبيِّن للناس حقيقة التوحيد والعبادة والإخلاص، وما يضاده من الشرك الأكبر والأصغر، والوسائل التي تؤدي إليه. وهذه مجموعة من النصوص المختارة، مأخوذة من الرسائل التي كتبها الشيخ، وكتبها تلاميذه. يقول في رسالته لأهل القصيم: "أُشهدُ الله، ومَن حضرني من الملائكة، وأُشهدكم أني أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر، خيره وشره. ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصفَ به نفسَه في كتابه على لسان رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل. بل أعتقد أنَّ الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أحرف الكلم عن مواضعه، ولا أُلحد في أسمائه وآياته، ولا أُكيف ولا أُمثل صفاته تعالى بصفات خلقه، لأنه تعالى لا سميَّ له، ولا كفءَ له، ولا ندَّ له، ولا يقاس بخلقه، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلا وأحسن حديثا. فنَزَّه نفسه عمَّا وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتمثيل، وعمَّا نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل، فقال: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [سورة الصافات : ١٨٠-١٨٢]"[١].

وقال أيضاً: "أخبركم أني ولله الحمد، عقيدتي وديني الذي أدين به مذهب أهل السنة والجماعة، الذي عليه أئمة المسلمين، مثل الأئمة الأربعة، وأتباعهم إلى يوم

[١] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٢٣

القيامة. لكني بيَّنْتُ للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأنبياء، والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يُعبَدُ اللهُ به، من الذبح، والنذر، والتوكل، والسجود، وغير ذلك، مما هو حق الله الذي لا يشركه فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل. وهو الذي دلت إليه الرسلُ من أولهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة"[1]. وقال: "وأنا أنصحكم، لا تظنوا أن الاعتقاد في الصالحين مثل الزنا والسرقة، بل هو عبادة الأصنام، من فعله كفر، وتبرأ منه رسول الله ﷺ، يا عباد الله تفكروا وتذكروا"[2].

ونفى وتبرأ أنَّ تكونَ دعوتُه دعوةً لطريقة صوفية مبتدعة، أو لمذهب فقهي معين، فقال: "بل أقول، ولله الحمد والمنّة وبه القوة، إنني هداني ربى إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. ولست ولله الحمد، أدعو إلى مذهبِ صوفيٍ أو فقيهٍ أو متكلِّمٍ، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله ﷺ، التي أوصى بها أول أمته وآخرهم"[3].

وأنكر ما اتهمه به أعداءُ الدعوة من تكفير عموم المسلمين، وبيَّنَ مَن يُكفر، ومَن لا يُكفر، فقال: "أمَّا التكفير، فأنا أكفر من عرف دين الرسول، ثمَّ بعد ما عرفه سبه، ونهى الناس عنه، وعادى من فعله. فهذا هو الذي أكفر، وأكثر الأمة ولله الحمد ليسوا كذلك، وأما القتال فلم نقاتل أحداً إلا الذين أتونا في ديارنا، ولا

[1] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٤٦
[2] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٥٥
[3] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٢٨-٢٩

أبقوا ممكنا، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة، وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها"[1].
وقال: "أركان الإسلام الخمسة، أولها الشهادتان، ثم الأركان الأربعة، إذا أقرَّ بها وتركها تهاوناً، فنحن وإن قاتلناه على فعلها، فلا نكفره بتركها. والعلماء اختلفوا في كفر التارك لها كسلاً من غير جحود، ولا نُكفر إلا ما أجمع عليه العلماء كلهم، وهو الشهادتان"[2].

وبيَّن مَن ومتى يُقاتل فقال: "وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه، بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة، ممتثلين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ فمن لم يُجِبْ الدعوة بالحجة والبيان قاتلناهم بالسيف والسنان"[3]. وقال: "أما ما نحن عليه من الدين فعلى دين الإسلام، وأما ما دعونا الناس إليه فندعوهم إلى التوحيد ... و أمَّا ما نهينا الناس عنه فنهيناهم عن الشرك ... فنحن مقلدون للكتاب والسنة وصالح سلف الأمة، وما عليه الاعتماد من أقوال الأئمة الأربعة ... وما جئنا بشيء يخالف النقل، ولا ينكره العقل ... نقاتل عبَّاد الأوثان كما قاتلهم ﷺ، ونقاتلهم على ترك الصلاة، وعلى منع الزكاة كما قاتل مانعَها صدِّيقُ هذه الأمة"[4].

---

[1] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٥٢
[2] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٧٠
[3] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٦٢
[4] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٦٧-٦٨

وردَّ الأكاذيب التي اختلقها الخصومُ للتنفير من الدعوة، فقال في رسالة له إلى علماء بلد الله الحرام: "أشاعوا أنَّا نسبُّ الصالحين، وأنَّا على غير جادة العلماء، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب، وذكروا عنَّا أشياء يستحي العاقل من ذكرها. وأنا أخبركم بما نحن عليه، بسبب أنَّ مثلكم ما يروج عليه الكذب ... ويُذكرُ لنا أن عدوان الإسلام الذين ينفرون الناس عنه، يزعمون أننا نُنكر شفاعة الرسول ﷺ، فنقول سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نشهد أنَّ رسول الله ﷺ الشافع المشفع صاحب المقام المحمود. نسأل الله الكريم، رب العرش العظيم، أن يشفِّعَه فينا، وأن يحشرنا تحت لوائه، هذا اعتقادنا"[1].

وقال: "ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر، وأنواع من المنكرات، فلم يمكن الرؤساء القدح في هذا وعيبه، لكونه مستحسناً عند العوام، فجعلوا قدحهم وعدوانهم في ما آمر به من التوحيد، وما نهيتهم عنه من الشرك، ولبسوا على العوام أن هذا خلاف ما عليه الناس، وكبرت الفتنة جدا، واجلبوا علينا بخيل الشيطان ورجله"[2].

وكان من حيل الخصوم للتنفير عنه ودعوته، أن أظهروا للناس أن ما يدعو إليه هو خلاف ما عليه أئمة المذاهب الأربعة، وأنه بمخالفته لهم قد أدعى الاجتهاد. والعلماء وطلبة العلم والناس، في زمن تعصبٍ للأئمة وتقليدٍ للمذاهب. فقال - رحمه الله - ينفي عن نفسه دعوى الاجتهاد، وأن دعوتَه هي ما عليه الأئمة

[1] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٤٦

[2] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٤٧

الأربعة، وغيرهم من علماء الدين: "وأما هذا الخيال الشيطاني الذي اصطاد به الناس أن من سلك هذا المسلك فقد نسب نفسه للاجتهاد، وترك الاقتداء بأهل العلم، وزخرفه بأنواع الزخارف، فليس هذا بكثير من الشيطان وزخارفه، كما قال تعالى: ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾. فإنَّ الذي أنا عليه وأدعوكم إليه، هو في الحقيقة الاقتداء بأهل العلم، فإنَّهم قد وَصَّوا الناس بذلك"[1].

وقد بيَّنَ ابنُه الشيخ عبد الله العقيدة التي يعتقدون، والدعوة التي يدعون الناس إليها، في رسالة له، وهذه كلماتٌ مختاراتٌ منها: "ما نطلب من الناس ونقاتلهم عليه هو إخلاص التوحيد لله تعالى وحده، ومعرفة أنواع العبادة وأن الدعاء من جملتها. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنَّ مَنْ قال: يا رسول الله، أو يا ابن عباس، أو يا عبد القادر، أو غيرهم من المخلوقين طالباً بذلك دفع شر، أو جلب خير من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، من شفاء مريض، ونصرٍ على عدو، وحفظ من مكروه، ونحو ذلك أنه مشرك شركاً أكبر. وأنَّ ما وُضِعَ من البناء على قبور الصالحين، صارت في هذه الأزمان أصناماً تُقصد لطلب الحاجات، ويتضرع عندها ويهتف بأهلها في الشدائد. وأن أصول مذهبنا مذهب أهل السنة والجماعة، وطريقتنا طريقة السلف، التي هي الطريق الأسلم، بل والأعلم والأحكم، خلافاً لمن قال طريق الخلف أعلم. وهيَ أنَّا نقر آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها،

---

[1] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/ ص٣٢

ونَكِلُ معناها[1] مع اعتقاد حقائقها إلى الله تعالى، فإنَّ مالكاً وهو من أجَلِّ علماء السلف حين سُئِلَ عن الاستواء قال: الاستواءُ معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ونعتقد أنَّ الخير والشر كله بمشيئة الله تعالى، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، فالعبد لا يقدر على خلق أفعاله، بل له كسبٌ، رُتِّبَ عليه الثواب فضلاً، والعقاب عدلاً. ولا يجب على الله لعبده شيء، والله يراه المؤمنون في الآخرة، بلا كيف ولا إحاطة. وفي الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولا ننكر مَن قلَّدَ أحدَ الأئمة الأربعة، دون غيرهم، لعدم ضبط مذاهب الغير كالرافضة والزيدية والإمامية ونحوهم، ولا نقرهم ظاهراً على شيءٍ من مذاهبهم الفاسدة. ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق، ولا أحدٌ لدينا يدعيها، إلا أننا في بعض المسائل إذا صح لنا نصٌ جلي من كتابٍ أو سنة، غير منسوخ ولا مخصص، ولا معارض بأقوى منه، وقال به أحد الأئمة الأربعة، أخذنا به وتركنا المذهب. كإرث الجد والإخوة، فإنا نقدم الجد بالإرث، وإن خالف مذهب الحنابلة. ونعتقد أن من فعل أنواعاً من الكبائر، كقتل المسلم بغير حق، والزنا والربا وشرب الخمر، وتكرر عنه ذلك أنه لا يخرج بفعله ذلك عن دائرة الإسلام، ولا يخلد في دار الانتقام، إذا مات موحداً بجميع أنواع العبادة.

ونعتقد أن رتبة نبينا محمد ﷺ، أعلى مراتب المخلوقين على الإطلاق، وأنه حيٌ في قبره حياة برزخية، أبلغ من حياة الشهداء المنصوص عليها في التتريل، إذ هو أفضل منهم بلا ريب، وأنه يسمع سلامَ المُسلِّمِ عليه، وتُسَنُ زيارته، إلا أنَّه لا تُشد

[1] يعني كيفيتها

الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه، وإذا قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس. ولا ننكر كرامات الأولياء، ونعترف لهم بالحق، إلا أنهم لا يستحقون شيئاً من أنواع العبادات، لا حال الحياة ولا بعد الممات، بل يطلب من أحدهم الدعاء في حال حياته، بل ومن كل مسلم، ونثبت الشفاعة لنبينا محمد ﷺ يوم القيامة حسب ما ورد، وكذلك نثبتها لسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسب ما ورد أيضا، ونسألها من المالك لها والآذن فيها لمن يشاء من الموحدين، الذين هم أسعد الناس بها، بأن يقول أحدنا متضرعا إلى الله تعالى اللهم شفع نبينا محمداً ﷺ فينا يوم القيامة، أو اللهم شفع فينا عبادك الصالحين، فلا يقال يا رسول الله، يا ولي الله، أسألك الشفاعة، أو غيرها كأدركني أو أغثني أو اشفني. والمُقْسِمُ بغير الله إن قصد التعظيم كتعظيم الله أو أشد، كما يقع لبعض غلاة المشركين من أهل زماننا، فهذا كافر من أقبح المشركين، وإن لم يقصد التعظيم بل سبق لسانه إليه فليس بشرك أكبر، ولكن ينهى عنه ويزجر، ويُؤمرُ صاحبه بالاستغفار. وأمَّا التوسل بجاه نبيه محمد ﷺ، أو بجاه عباد الله الصالحين، أو بحق فلان، فهذا من أقسام البدع المذمومة، وليس بشرك. ولا نكفر إلا مَن بلغته دعوتنا للحق، ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة، وأصر مستكبراً معانداً، كغالب من نقاتلهم اليوم، وغيرُ الغالب إنما نقاتلهم لمناصرته من هذه حاله ورضاه به، وتكثير سواد مَن ذُكِر، والتأليب معه، فله حينئذٍ حكمُه في القتال. والبدعة ما حدثت بعد القرون الثلاثة، مذمومة مطلقا، كرفع الصوت بغير الأذان في أماكن الأذان"[1].

[1] أنظر كامل الرسالة في كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج١/١٤٧-١٦١

* * *

الخاتمة

هذا آخر ما أردته من كشف الأكاذيب والشبهات التي أُثيرت حول دعوة المصلح الإمام محمد بن عبد الوهاب، أسكنه الله فسيح جناته، وعامله بعفوه وإحسانه، ورفع درجته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، جزاء ما نصح الأمة وجاهد، لردها إلى ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته والتابعون لهم بإحسان، نصيحة ومحبة للمسلمين، وتبيانًا للحق المبين، وتنبيهًا من زخرفة الشياطين، ووساوس المبطلين، الذين يصدون الناس عن سبيل الله بغير علم ولا سلطان مبين، سائلاً المولى بلطفه الجميل، وإحسانه الجم الغفير، أن يهدي ضال المسلمين، وأن يجمع كلمة الأمة على الحق المبين، الذي نزل به القرآن الكريم، وجاء به النبي المصطفي الكريم، وسلكه الصحابة والتابعون، وأن يرحمني ووالدي وأهلي والمسلمين، ويمن علينا بالثبات على الصراط المستقيم، حتى نلقاه وهو راضٍ عنا، غافر لنا رحيم، وأن يجمعنا برسوله ﷺ في جنات ونعيم، ويرزقنا شفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عباده المرسلين.

الفهرس

المقدمة	٧
المقدمة الأولى: الاستدلال الصحيح والاستدلال الضعيف والباطل	١١
المقدمة الثانية: شرط نسبة القول والفعل للفرد والجماعة	١٤
المقدمة الثالثة: خصوم الإمام محمد في الأمس واليوم	١٧
الشبهة الأولى: التوسل والشفاعة والكرامات	٢١
مسألة التوسل	٣٠
مسألة الشفاعة	٤٤
مسألة الكرامات	٥٣
الشبهة الثانية: التكفير والقتال	٥٧
الشبهة الثالثة: تكفير الآباء والأجداد والأموات	٧٠
الشبهة الرابعة: المبالغة في تصوير فشو الشرك في بلاد المسلمين	٧٩
الشبهة الخامسة: ادعاء مرتبة الاجتهاد وتكوين مذهب فقهي خامس	٨٣
الشبهة السادسة: فرية تنقص مقام الرسول ﷺ	٨٩
الشبهة السابعة: أن نجدًا قرن الشيطان	٩٨
الشبهة الثامنة: الغلو والتشدد في الدين	١٠٢
الشبهة التاسعة: التشبيه والتجسيم	١١٤
الشبهة العاشرة: الخروج على الدولة العثمانية	١٣٤
التعريف بالإمام محمد بن عبد الوهاب	١٤٠

التعريف بالدعوة السلفية في نجد	١٥٢
الخاتمـــة	١٦٤